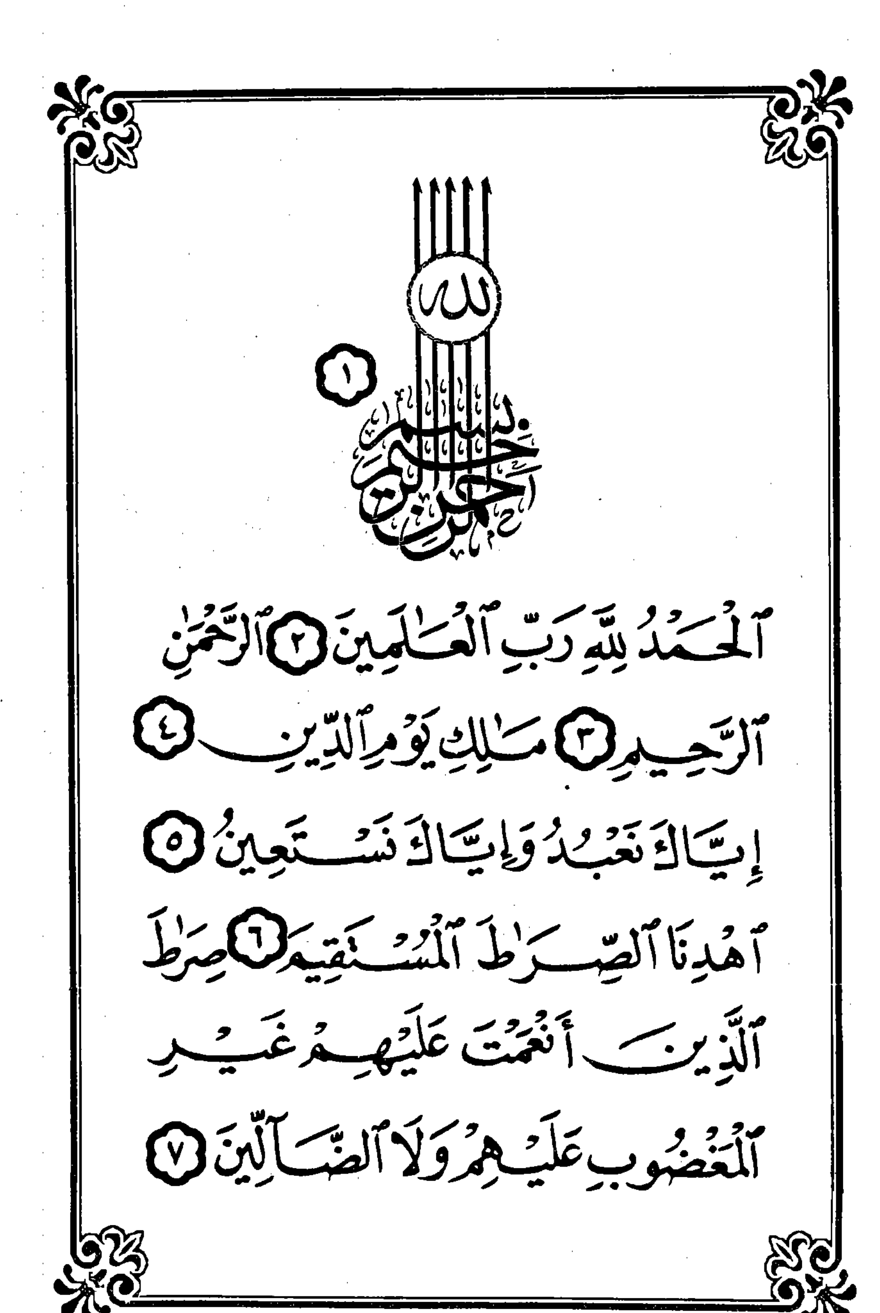
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(١)

أسطورة الوطن اليهودي

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

أسطورة الوطن اليهودي

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية





Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره [1] ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [2] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [3] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [4] .

أما بعـــد :

فلو كان مقدرا لهذا العالم الإسلامى أن يموت [5] ، لمات فى خلال القرون الطويلة المديدة التى مرت به، وهو مكبل بالقيود، فى حالة إعياء عن الحركة، بعد أن حمل عبء الحضارة الإنسانية طويلا، وبعد أن تعب فاسترخى فنام! فى الوقت الذى تحرك صوب القيادة حزب الشيطان، بعد أن تخلى عن القيادة والريادة عباد الرحمن !

ومن ثم دانت معظم أطراف الأرض لحزب الشيطان !

وكان الثقل الكبير على صدر العالم الإسلامى النائم!

---

(١) تشرع هذه الخطبة بين كل حديث، اتباعا لسنة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وهى تسمى« خطبة الحاجة » .

(٢) آل عمران : ١٠٢.

(٣) النســاء : ١.

(٤) الأحزاب : ٧٠-٧١.

(٥) فى التاريخ فكــرة ومنهـاج، بتصـرف.

ترى ، لو كان مقدرا لهذا العالم الإسلامى أن يموت ، لمات فى خلال فترة الاسترخاء والإعياء، وفى إبان حركة حزب الشيطان!

ولكنه لم يمت ... بل انتفض حيا ستفاعلا يزيح الركام الهائل عن صدره، وينفض النوم العميق عن جفنه، ويحطم الأغلال، ويكسر القيود!

وحيثما مد الإنسان بصره اليوم شعر بهذه الانتفاضة الحية، وشعر بالحركة المتفاعلة ... حتى الشعوب التى ما تزال فى أعقاب دور الاسترخاء،والتى ما تزال مرهقة بالأثقال.. حتى هذه الشعوب يدرك المتأمل فى أحوالها أن الحياة تدب فى أوصالها، ويرى خلال الرماد وميض نار، توشك أن يكون لها ضرام !

ترى، ما الذى احتفظ لهذه الشعوب بحيويتها الكامنة بعد قرون كثيرة عديدة، طويلة مديدة، من النوم والاسترخاء، ومن الضعف والخمود، ومن الهبوط والركود، ومن أساليب الظلم والجحود، والبطش والكنود، والضغط والقسر، والاحتلال البغيض الذى بذل جهده لتقطيع أوصالها، وإخماد أنفاسها ؟

إنه الإيمان المتمثل فى العقيدة القوية العميقة، التى لم يستطع حزب الشيطان قتلها، على الرغم من كل تلك الجهود المتواصلة المتواكبة، التى وجهت إلى الفكر والروح، والاجتماع والسياسة !

هذه العقيدة التى تدعو معتنقيها إلى العزة التى هى صنو الإيمان فى الجَنان المؤمن، العزة التى تهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تضعف، ولا تستكين ولا تلين، ولا تزايل الجَنان المؤمن فى أحرج اللحظات، وأشد الأزمات، إلا أن يتضعضع فيه اليقين، فإذا استقر ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

هذه العقيدة التى تدعو معتنقيها إلى المقاومة والكفاح، لتحقيق الاستعلاء على حزب الشيطان وألاعيبه، وعدم الخضوع للظالمين، أيا كانت قوتهم المادية ؛ لأن تلك القوة المادية وحدها لا تخيف المؤمنين بالله، جبار السموات والأرض، القاهر فوق عباده أجمعين :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

---

(١) المنافقون : ٨. (٢) الأنعام : ١٨.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢).

هذه العقيدة الحية المتفاعلة، هى التى حفظت لهذه الشعوب المترامية الأطراف قوتها الكامنة، وبعثتها بعثا جديدا!

وتلك حقيقة كبرى تستحق الالتفات، لكى ندرك قيمة هذه العقيدة فى كفاحنا، ولكى ندرك ــ كذلك ــ أن حزب الشيطان فى القديم وفى الحديث على سواء، لم يكن عابثا وهو يحاول تحطيم هذه العقيدة، وتحطيم دعاتها فى كل أنحاء العالم الإسلامى !.

ولقد ظن الناس أن حزب الشيطان قد أفلح، وأن هذه العقيدة قد نامت إلى غير يقظة، فإذا بها تنتفض على أيدى دعاة الحق، الذين:

﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣).

وإذا بالفجر يبعث خيوطه، وبالنور يتشقق به الأفق، بعد ليل طال أمده..

وإذا بالصادقين من الخلف يسيرون على نهج السلف الصالح، فى صحوة مباركة إلى غير سبات.. والمسلمون الأولون الذين تلقوا القرآن الكريم تلقيا حقيقيا شعروا شعورا صادقا أن الكيان الإنسانى كله يتزلزل، ليعاد تركيبه من جديد، وفق ذلك التصور الجديد..

وأدركوا أن الكيان القديم الذى بنى وفق تصورات الجاهلية، لا يمكن أن يبقى ولا أن يثبت، ولا يرقع ترقيعا بالتصور الإسلامى الجديد..

بل لا بد من زلزلة وتصدع كاملين فى الكيان القديم، ليعاد إنشاؤه وفق تكوين جديد دقيق، ووفق بصر جديد عميق :

---

(١) يوسف: ٢١. (٢) الحجرات: ١٥.

(٣) المائدة: ٥٤.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

وتلك صورة تمثل حقيقة، فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا، وأثرا مزلزلا، لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته..

وإن اللحظات المباركات الطيبات التي يكون فيها الكيان النفسي متفتحا لتلقي شيء من حقيقة القرآن الكريم يهتز فيها اهتزازا، ويرتجف ارتجافا، ويقع فيه من التغييرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام وأشد :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ ﴾ (٢).

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ (٤).

إنها صورة حية حساسة، ترسمها العبارات، وتحدد ملامحها الكلمات، فتكاد تشخص فيها الحركات..

إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب الجَنان المؤمن، حين يذكر الله، وحين يحيا مع آيات الله، فيغشاها جلال الحق، وتنتفض فيه مخافة الخالق، ويتمثل عظمة الحق ومهابته.. فينبعث إلى طاعة الرحمن باللسان والجَنان، والوجل والخشية، والإنابة والخضوع، والضراعة والخشوع..

لقد تصدع كيان النفس البشرية التي مسّها القرآن الكريم مسّا حقيقيا، ليعاد تركيبها على نسق غير مسبوق، ولتسير في طريق النور على هدى وبصيرة..

---

(١) الحشر : ٢١. (٢) الزمر : ٢٣.
(٣) الأنفال : ٢. (٤) الشورى : ٥٢.

والكتاب والسنة صنوان أو توأمان،عليهما تتوقف حقيقة الإيمان ، ومنهما تستمد أحكام الأعمال التي يباشرها الإنسان، ومنزلة السنة من القرآن منزلة البيان من المبيّن :

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١) .

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢) .

هذا ، إلى ما تقدمه السنة النبوية في هذا المقام من شئون الدين وأحكامه :

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (٣)

إن هذه الآية الكريمة تبين بما تقتضيه « ما » من معنى العموم إن كل ما يقدمه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى الأمة من أمور دينها فإنها مكلفة باعتباره، والسير على سننه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾

يا له تنويها عظيما، وتقديرا كريما، ينبه القلوب الغافلة، ويرهب النفوس الجامحة :

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥) .

وإنه لتحذير رهيب، وتهديد رعيب.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويبتغون نهجا غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ليحذروا :

﴿أن تصيبهم فتنــة﴾ .

---

(١) النحــــل : ٤٤ . (٢) النحــــل : ٦٤ . (٣) الحشر : ٧ .

(٤) النساء : ٦٤ ـ ٦٥ . (٥) النــــور : ٦٣ .

تضطرب فيها المقاييس، وتختل فيها الموازين، وينتكث فيها النظام، فيختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث، وتفسد أمور الجماعة وحياتها، فلا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حده أحد، ولا يتميز فيها خير من شر.. وهى فترة شقاء للجميع:

﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾.

جزاء المخالفة عن أمر الله، ونهجه الذى ارتضاه للحياة.

يروى البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

« كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ».

قالوا يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال:

« من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى » (1).

ويوم تمسّك سلفنا الصالح بالكتاب والسنة، تسلموا قيادة العالم وريادته، وحققوا صورة كريمة مباركة طيبة للحياة العادلة المثالية الرائدة، السامية القائدة، لا تدانيها صورة فى التاريخ البشرى كله..

وجاء من بعدهم خلف انحرفوا فانجرفوا، واستمروا فى الهبوط فى السوء، حتى تخلفت الأمة عن غيرها، وحينئذ جاءتها:

قارعة التتار!

بيد أنها لم تستخلص الدرس، ولم تصغ للعظة، فأصابتها:

جحافل الصليبيين!

واستيقظت بعض اليقظة، لتعود إليها غفلتها، ولترجع إلى غفوتها، فداهمتها:

مصيبة الأندلس!

بعد أن كانت مصدر إشعاع، ونورا فى ظلام من حولها من الأمم!

ولما تردت فى سوءاتها، وغفلت عن السنن، حلت:

(1) البخارى: ٩٦ ـ الاعتصام (٧٢٨٠).

كارثة فلسطين !

واستمرت الأمة متخبطة فى عقابيل انحرافاتها، ومستنقعات سوآتها!

فى الوقت الذى نبصر فيه علماء السوء يقرون تلك الانحرافات، ويتسترون على تلك السوآت، ويفتون بما لم يأذن به الله، ويضفون ثوب القداسة على هذه الضلالات وتلك السوآت!

والشيء الوحيد الذى يهتمون به، ويضعونه نصب أعينهم، هو الحفاظ على الوظيفة بشتى السبل، والانحناء أمام الوسائل التى ترشح للترقى فى سلّم المادية الدنيوية وكفى !

إنه خط واضح السمات، واضح الخطوات، تظله الضلالات، وتحدوه السوآت!

ومع كل هذا فهؤلاء عنه مدافعون، وفى سبيل الحفاظ عليه مجادلون، ولكن :

﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾[1].

ومن يجادل سنن الله، وهى تفضى بهم وبأمتهم إلى نهايات يعرفها من استقرأ التاريخ، وتتلمذ على الوحى !

وهم إذا بحثوا عن الأمة فعن المظاهر يبحثون، لا عن الأسباب الباعثة المتفشية فى المجتمع، والصانعة لها !

إن الجبن قد مزقهم كل ممزق، فراحوا يدورون مع الريح الصرصر العاتية حيث تدور، ويطلقون على ذلك كياسة وذكاء، وفطنة ودهاء!

يا حسرة على هؤلاء الذين يتصدرون الركب، ويفتون بما لم يأذن به الله، ويفترون على الله الكذب، ليرضى عنهم الناس، ولا يهمهم أن يسخط رب الناس !

ورغم هذه القوارع التى أصابت المسلمين فى هؤلاء، وفى:

قارعة التتار!

وجحافل الصليبيين !

---

(١) النساء: ١٠٩.

ومصيبة الأندلس!

وكارثة فلسطين!

رغم تلك المصائب والكوارث، فإن الأمة لم تدرس أسباب ما حدث، ولم تقدم الحلول الصحيحة،ولا أساليب الوقاية، فاجتاحها حزب الشيطان،ومزقها كل ممزق، فكـرا وأرضا!

وهى لا تملك أن تقف مرفوعة الرأس!

حتى وجد الكثيرون أنفسهم مأخوذين بما بهر عيونهم التى لم تبصر فى الضوء مثل الخفافيـش ، أو منكفئين على أنفسهـم ، يتجـرعـون صديـد أفكـار عصـور الانحـطاط والانحراف!

ولم تواجه الأمة الأمر مواجهة صادقة، لتستقرىء السنن الثابتة، وتقف على الحقائق كما هى ، وتتخلص على هـدى وبصيرة من أدوائها التى جثمت على الصدور، وأدرانها التى رانت على القلوب!

ومن ثم تتابعت مآسى ما حدث ويحدث للمسلمين فى:

أفغانستان!

وشبه القارة الهنديـة!

والقارة الأفريقيـة!

مما يطـول الحديث فيه ويطـول!

وعم نزيف الدم الأقليات الإسلامية التى يحكمها غير المسلمين! والبلاد التى تحتسب على الإسلام وما أكثرها، وهى ضالة عن الحق، متخبطة فى التيه!

وخلال هذه الأحداث المريرة جاءت نازلة اضطهاد الحركة الإسلامية، بشكل فاضح كالح لم يسبق له فى التاريخ مثيل!

ووسط هذا الظلام، استمر نزيف الدم المصنوع فى معامل الأعداء، والذى كان من السهل تحركه فى الخواء العام، حيث غاب العقل، والفهم والضمير!

بيد أن هذا الضلال أصابته جائحة حرب ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م بأوضح لغة وبيان، وما زالت الأمة تتلقى القوارع في نزيف الدم المستمر بين معتنقى هذا الضلال، الذين رجعوا إلى جاهليتهم الأولى، يضرب بعضهم رقاب بعض !

وما أحوجنا فى هذه اللحظة الفارقة الحاسمة إلى من يرد علينا فقه الإيمان، وبرد اليقين، وأنس الروح، وسعادة النفس، ونشوة الحس، حتى ترجع إلينا سيرتنا الأولى..

وأول معالم الطريق أن نتأسى بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

نور وهاج أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية، فانجابت كما ينجاب الغمام، وهدى من الله أرسله إلى الإنسانية الضالة فانتشلها من ضيعة، وانتاشها من هلاك، وأنقذها مما كانت تتخبط به فى دياجير الظلام، وعقابيل الضلال (٢).

كانت حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ صفحة عريضة، فريدة وحيدة ، من صفحات الجهاد، لإنقاذ البشرية، ومثلا صادقا، فريدا وحيدا، لمُثُل البر والمرحمة، وسيرة عالمية، رفيعة الشأن، جليلة القدر، عظيمة النفع، كبيرة الفائدة، تلمع أضواؤها فى الكتاب والسنة.. متضمنة نفحات من هذا الهدى، وومضات من ذلك الإشراق..

إن سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ غنية بأحداثها، زاخرة بدلالتها ، متنوعة بمعطياتها..

وما كان لباحث منصف يسعى إلى إيفائها حقها من البحث والتحليل، إلا أن يوسع نطاق رؤياه، ويصب اهتمامه على أحداثها، من حيث كونها :

واقعية مثالية..

حركية أخلاقية..

قيادية روحية..

فقهية حضارية ..

---

(١) الأحزاب : ٢١.

(٢) انظر: مقدمة تهذيب سيرة ابن هشام،والروض الأنف.

ومن هنا لم ألتزم الخط الزمنى لأحداث السيرة فيما يتعلق باليهود..

ذلك الخط الذى وقع فى أسره معظم الكاتبين، فضاعت فى مجراه حقائق ، وطمست دلالات وقيم، ما كان لها أن تضيع أو تنطمس لو قسمت وقائع السيرة إلى دراسات موضوعية متجانسة، استقصيت فيها سائر جوانبها ، ونسقت جُل وقائعها ، وحللت دلالاتها، رغم أن الخط الزمنى يمثل الأمانة فى ذكر وقائع الأحداث كما كانت، كما أنه يدفع الباحث أن يعرض فى النقطة الواحدة أو المقطع الواحد [1]، مجموعة أحداث، كما يدفعه أن يعرض وقائع متنافرة، متقاطعة غير متجانسة، ويلجئه أحيانا أخرى إلى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة، لا يضمها إطار واحد، ولا يوحدها تجانس نوعى..

وتلك ــ بطبيعة الحال ــ نتيجة مفروضة للسعى وراء منطق التقسيم الرياضى الصارم للأيام والسنين.

وهذا الأسلوب هو الذى اعتمده مؤرخونا القدامى، وعرفوه باسم (الحوليات)، حيث لم تكن مناهج البحث الموضوعى فى علوم التاريخ قد استكملت أسبابها بعد..

وإن اعتماد بعض المؤرخين المحدثين على عدد من مصادر المتأخرين ، كمصادر محورية، وتغافلهم عن واحد أو أكثر من المصادر الأساسية، جعلهم يتركون فقرات عميقة فى صلب أبحاثهم ، كما دفعهم إلى سرد الكثير من الإضافات المتأخرة، التى لم تكن فى المصادر الأولى، ومن ثم كان تضخيم وقائع السير إلى أضعاف حجمها الحقيقى على حساب الوقائع نفسها ..

وقد نزل القرآن الكريم منجّما، ونزلت آياته على مكث، لكى تلامس الأحداث:

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [2] .

حتى يربى أمة، ويقيم لها نظاما، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها [3] ، وتعلّم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل.

---

(١) مقدمة دراسة فى السيرة، بتصرف .

(٢) الإسراء : ١٠٦.

(٣) فى ظلال القرآن : ٤:٢٢٥٣ بتصرف .

ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة، ووفق الملابسات التى صاحبت فترة التربية الأولى، والتربية التى تتم فى الزمن الطويل، والتجربة العملية فى الزمن الطويل...

جاء ليكون منهجا عمليا يتحقق جزءا جزءا فى مرحلة الإعداد، لافقها نظريا، ولا فكرة تجريدية، نعرض للقراءة والاستمتاع الذهنى !

وتلك حكمة من حكم نزوله مفرقا، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى...

ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى، وأخذوه توجيها يطبق من واقع الحياة ..

كلما جاءهم منه أمر أو نهى ..

وكلما عرفوا منه أدبا أو فريضة ..

ولم يأخذوه متعة عقلية، أو نفسية، كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ، ولا تسلية ولا تلهية، كما كانوا يأخذون القصص والأساطير، فكيّفوا به حياتهم اليومية..

تكيّفوا به فى مشاعرهم وضمائرهم ، وفى سلوكهم ونشاطهم ، وفى بيوتهم ومعاشهم .. فكان منهج حياتهم الذى طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ، ومما عرفوه، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن ..

وإن الظروف الراهنة آنذاك ليست ـ كما يدّعى المستشرقون والمستغربون ـ هى الحتمية التى حددت مسار الإسلام وخطى رسوله[1]، إنما هنالك المنهج الذى أحدث انقلابا شاملا على ضلالات الجاهلية، وهذا ما يبدو واضحا منذ أول لحظة فى الشعار الحاسم الذى رفعه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى وجه الجاهلية:(لا إله إلا الله)، فأى ظرف راهن موقوت أوحى بهذا الشعار الانقلابى الشامل، الذى جاء يدمّر على الوجود الجاهلى كل ضلالات الجاهلية ؟ !

ونحن نطلب من هؤلاء وهؤلاء أن يكونوا منهجيين فى بحوثهم عن الرسالة والرسول ، غير متعصّبين لمعتقداتهم، وأن ينظروا إلى القرآن الكريم كمنهج له خصائصه ،

---

(١) مقدمة دراسة فى السيرة بتصرف .

وتعلو معطياته على الظروف الراهنة زمانا ومكانا ، رغم ملامساتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية، ولكنها الملامسات التى تنبثق عنها قيم ودلالات ذات طابع شمولى، ما كان لهم أن يغفلوا عن أبعادها! وأن ينظروا إلى السيرة النبوية كوحدة عضوية متكاملة.

وهم بأخطائهم الشنيعة الفظيعة، قد طرحوا الكثير من النتائج الخاطئة، والمعطيات الهابطة ؛ لأن الخطأ لاينتج إلا الخطأ، والبعد عن الموضوعية لا يقود إلا إلى نتائج لا تحمل روح العلم فى شىء !

وآفة هؤلاء وهؤلاء أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات الواهية ، والشبه الهابطة ، والظنون التى لا تغنى من الحق شيئا مساق الحقائق المسلّمة، ويقيسون الماضى الذى لم يكن يوما جزءا من تاريخ حياتهم ، وبالتالى لم يكن من مكونات ضمائرهم ، بمقياس حاضرهم، مع تباين المكان والزمان ، والعقلية والروح !

وآية ذلك أنهم يغضّون أبصارهم عن الطابع الميتافيزيقى الذى نشأت فى ظله هذه الأحداث، ويرفضون المناهج الأصيلة فى نقد الأخبار ورواتها !

وإذا بحثنا عن الأسباب التى ترجع إليها هذه الخصوصية الشديدة الهوجاء وتلك الحرب العنيفة الرعناء، التى يثيرها هؤلاء وهؤلاء ضد الرسالة والرسول ﷺ فإننا نجد الجهل بحقيقة الإسلام ، وبسيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فى مقدمة ما يدعو إلى هذه الخصومة الهوجاء، وتلك الحرب العنيفة الرعناء!

والجهل ــ ولا ريب ــ من أعقد أسباب الجمود والتعصب، وأشدها استعصاء، ولقد تراكم هذا الجهل على مر القرون، وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان(١)، يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوة الإسلام أول ظهوره.

على أن ثمة سببا يضاف إلى الجهل، هو الذى دفع هؤلاء وهؤلاء إلى هذا التعصب المقيت، وإلى إثارة تلك الحرب الضروس الشعواء التى أثاروها، ويثيرها تلاميذهم على الرسالة والرسول ﷺ آناً بعد آن !

وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من صروف السياسة، وحب الظفر بالشعوب لاستغلالها، فتلك فى اعتقادنا نتيجة، وليست سببا لهذا التعصب المستعصى ،

---

(١) حياة محمد : ١٢ بتصرف .

حتى على العلم وعلى بحوثه!

هذا السبب هو أن عقائد هؤلاء وهؤلاء، وما تدعو إليه، ليست مما يلائم الطبائع والغرائز ، والاستعدادات والرغبات ، فقد أصابها التزييف والتحريف ، والتضليل والتخريف ، ومن ثم خرج هؤلاء وهؤلاء على تلك القواعد، واختلفوا اختلافا بيّنا فيما بينهم ، مما يطول الحديث فيه ويطول !

ولا ننسى تأخر المسلمين، وما صارت إليه الشعوب الإسلامية!

وهذا مما يضاعف مسئوليتنا تجاه ضلالات هؤلاء وهؤلاء ، ممن أصابهم العمى والاختبال، ولم يدركوا ميزان الضبط فى الاستدلال!

ومن رحمة الله عز وجل أن اتصال السند من خصائص الأمة الإسلامية..

ولسنا نعرف على مدى التاريخ البشرى كله أمة من أمم الرسل، عليهم صلوات الله وتسليماته، قد سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة من الأحاديث النبوية، وهذا السجل الخالد.

بل على العكس من ذلك، نرى الأمم كلها فقيرة، لا تملك مصدرا من مصادر البحث عن سيرة الأنبياء، ونراها قد انقطع ما بينها وبين أنبيائها، وفقدت الصلة التى تصلها بعصر هؤلاء الرسل، وتطلعها على شئون حياتهم ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات ، حتى صار كثيرون منهم يتساءلون ، بل يشكّون فى نبوة أنبيائهم !

ونحن مع معارضتنا لهذا التطرف نؤمن بأن هناك حلقات مفقودة، لا يمكن البحث عنها، والاهتداء إليها !

أما خاتم الرسل الحبيب المحبوب ﷺ فهو الرسول الوحيد الذى نعرف عنه كل دقيق وجليل، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والصفات، والميول والرغبات، والقول والعمل ما لا نعرفه عن غيره.

بل إن ما عرفناه عن الأنبياء جاء من طريق الوحى الذى أنزله الحق تبارك وتعالى على خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الرسل والأنبياء أجمعين، كما جاء من حديث النبى ﷺ ..

وعليه فالحديث النبوى بهذه الصورة هو السجل الخالد ، الذى حفظ هذه الحياة المباركة الطيبة.. وهو من خصائص الأمة الإسلامية.. وهو الذى يعرّف المسلم بكل ما يتصل بنبيه وحبيبه، من قول وفعل ، وتقرير ووصف،فى الحركات والسكنات، ويسعده بصحبته، وكأنه حضر مجلسه، واستمع لحديثه، وقضى معه أسعد مدة من الزمان، ليسمع كلامه، ويشاهد عمله، ويدرس سيرته ..

ثم إنه ميزان عادل لحركة هذه الأمة، زاخر بالحياة النابضة، والقوة المؤثرة، التى تبعث على الخير والفلاح، والرشد والصلاح..

ومن رحمة الحق تبارك وتعالى أن كانت هذه الأمة تحمل قوة الذاكرة، وسرعة الحفظ والاستظهار، مما يسر لها الجمع والاستحضار،حتى كانت القلوب واعية، والعقول حافظة.. ولا غرو، فقد بهرهم الوحى بقوة بيانه، وأخذ عليهم مشاعرهم بقوة سلطانه، واستأثر بكريم مواهبهم فى لفظه ومعناه، فكان الحفظ فى الصدور، والتدوين فى السطور،.. وكانت صبغة الله التى شاء أن تكون.. وقد خلعوا عليه حياتهم، حين علموا أنه روح الحياة..

ومن ثم كانوا أهلا لتحمل الرواية، ، وفقه الدراية، حتى فاقوا فى ذلك كل الأمم .. وقد وعى الصحابة الكرام رضى الله عنهم ما سمعوا، وما شاهدوا، وحرصوا أشد الحرص وأبلغه على حفظه ونشره، حرصا لم يعرف عن أمة نبى من الأنبياء..

وجاء التابعون وتابعوهم بإحسان ، فحملوا الراية ، وأدوا الأمانة ، وبلغوا حديث الرسول الحبيب ﷺ وسيرته، وتتابع المسلمون جيلا بعد جيل يحفظون ويبلغون ..

وكان لقواعد التحديث الأثر الفعال فى وضع الموازين التى تكفل السلامة للعلماء والباحثين ، وتقيم الحجة على المفسدين المغالطين ، ممن ساءت نواياهم حيال هذا الدين ، فاتهموا هذه القواعد بما لا يقوم على ساق ولا قدم، ولا يستقر عند البحث والنظر ..

أجل: إن فى هذه القواعد :

فوائد مهمة فريدة..

ومباحث جمة مفيدة..

ومعارف رائقة وحيدة..

وتحقيقات بديعة لطيفة..

ومعالم نفيسة شريفة، لايستغنى عنها من يشتغل بالبحث فى العلوم الشرعية، والطرق الحكمية، والأدلة اليقينية..

إنها عصمة من الزلل، ولولاها لقال من شاء ما شاء ، ولخبط الناس خبط عشواء ، وركبوا متن عمياء..

إنها مقدمة السيرة النبوية ومفتاحها ، ومشكاة أدلتها اليقينية ومصباحها ، وعمدة مناهجها العلمية ورأسها..

وليعلم من يريد أن يعلم : (١)

من إنسان أسلس للعصبية المذهبية قيادة ، حتى ملكت عليه رأيه، وغلبته على أمره ، فحادت به عن طريق الهُدَى!

أو من رجل قرأ شيئا من العلم فداخله الغرور، إذ أعجبته نفسه، فتجاوز بها حدها، وظن أن عقله هو العقل الكامل، وأنه (الحكم المرضى حكومته) فذهب يلعب بأحاديث النبى ﷺ، يصحح منها ما وافق هواه وإن كان مكذوبا موضوعا، ويكذب ما لم يعجبه، وإن كان الثابت الصحيح !

أومن رجل استولى المبشرون على عقله وقلبه، فلا يرى إلا بأعينهم، ولايسمع إلا بآذانهم، ولا يهتدى إلا بهديهم، ولا ينظر إلا على ضوء نارهم يحسبها نورا، ثم هو قد سماه أبواه باسم إسلامى ، وقد عدّ من المسلمين ــ أو عليهم ــ فى دفاتر المواليد ، وفى سجلات الإحصاء ، فيأبى إلا أن يدافع عن هذا الإسلام الذى أُلبِسه جنسية ولم يعتقده دينا، فتراه يتأول القرآن ليخضعه لما تعلم من أستاذيه، ولا يرضى من الأحاديث حديثا يخالف آراءهم وقواعدهم، يخشى أن تكون حجتهم على الإسلام قائمة، إذا هو لا يفقه منه شيئا!

أو من رجل مثل سابقه، إلا أنه أراح نفسه، فاعتنق ما نفثوه فى روحه من دين

---

(١) الجامع الصحيح : (سنن الترمذى) : ١ : ٧١ بتصرف.

وعقيدة، ثم هو يأبى أن يعرف الإسلام دينا أو يعترف به، إلا فى بعض شأنه، فى التسمى بأسماء المسلمين، وفى شىء من الأنكحة والمواريث ودفن الموتى !

أو من رجل مسلم عُلِّم فى مدارس منسوبة للمسلمين، فعرف من أنواع العلوم كثيرا، ولكنه لم يعرف من دينه إلا نزرا أو قشورا، ثم خدعته مدنية الإفرنج وعلومُهم عن نفسه،فظنهم بلغوا فى المدنية الكمال والفضل، وفى نظريات العلوم اليقين والبداهة، ثم استخفه الغرور، فزعم لنفسه أنه أعرف بهذا الدين وأعلم من علمائه وحفظته وخلصائه، فذهب يضرب فى الدين يمينًا وشمالا، يرجو أن ينقذه من جمود رجال الدين ! وأن يصفيه من أوهام رجال الدين !

أومن رجل كشف عن دخيلة نفسه، وأعلن إلحاده فى هذا الدين وعداوته ، ممن قال فيهم القائل : « كفروا بالله تقليدا » !

أو من رجل!.. أو من رجل!

ليعلموا هؤلاء كلهم، وليعلم من شاء من غيرهم: أن المحدّثين كانوا محدّثين ملهمين، تحقيقا لمعجزة سيد المرسلين ، حين استنبطوا هذه القواعد المحكمة لنقد رواية الحديث، ومعرفة الصحاح من الزياف، وأنهم ما كانوا هازلين ولا مخدوعين، وأنهم كانوا جادين على هدى وعلى صراط مستقيم، فكانت تلك القواعد للتوثق من صحة الأخبار أحكم القواعد وأدقها، ولو ذهب الباحث المتثبت يطبقها فى كل مسألة لا إثبات لها إلا صحة النقل فقط، لآتته ثمرتها الناضجة، ووضعت يده على الخبر اليقين ..

ولكى يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها، ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغى أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس والحياة.. (١)

مقومات النفس البشرية: روحية، وفكرية، وحيوية..

ومقومات الحياة البشرية: معنوية، وفطرية، ومادية..

وأن يفتح روحه وفكره وحسّه للحادثة، ويستجيب لوقوعها فى مداركه، ولا يرفض شيئا من استجابته لها إلا بعد دراسة وتمحيص ونقد..

---

(١) فى التاريخ فكرة ومنهاج : ٣٧ بتصرف.

وإذا كان يتلقاها ـ بادئ ذى بدء ـ وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس، عن عمد أو عن غير عمد، فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية، وعنصرا من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئا أو ناقصا.

هذه الاستجابة الناقصة، هى أول مظهر تتسم به البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية، ذلك أن هناك عنصرا ينقص الطبيعة الغربية ـ بصفة عامة ـ لإدراك الحياة الإسلامية ـ بصفة خاصة ـ :« عنصر الروحية الغيبية» وبخاصة فى العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية ـ على وجه الخصوص ـ .

وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر فى العقلية الغربية الحديثة .

وقد ذكرت عنصر الروحية الغيبية ـ على وجه الخصوص ـ ، لأنه أظهر ما يبدو فيه هذا النقص فى الطبيعة الغربية، وفيه تكمن معظم أوجه الاختلاف بين الطبيعتين ، وهى شتى وكثيرة..

وهذه المقدمة لا بد منها لبيان ما فى تناول هؤلاء للسيرة النبوية من :

نقص طبيعى فى الإدراك والتقدير..

ونقص طبيعى فى الفهم والتعبير..

ونقص طبيعى فى التفسير والتصوير..

ذلك أن انعدام عنصر من عناصر الاستجابة للحادثة أو ضعفه،لا بد أن يقابله نقص فى القدرة على النظر إلى الحادثة من شتى جوانبها ..

وضياع عنصر من عناصر التقويم والحكم أمر لا يؤمن معه سلامة هذا الحكم، أو على الأقل لا يسلم على علاته..

هذا النقص يعد عيبا فى منهج العمل ذاته، وليس مجرد خطأ جزئى فى تفسير حادثة أو تصوير حالة..

ومن ثم فالمنهج الأوربى فى البحث يسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة، سواء كان

ذلك ناشئا عن الطبيعة الغربية ذاتها، وملابسات حياتها البيئية والتاريخية، أو كان ناشئا عن تعمد المؤرخ الأوربى تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين فى الدراسة..

هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية، ويتجلى عدم الصلاحية أوضح وأقوى فى جانب الدراسات التى تتعلق بالرسالة والرسول ﷺ..

ومنها ما يتعلق بموضوع بدء اليهود العدوان،على الرغم من أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بدأهم ـ كما سنعرف ـ بالإشادة والمودة، ولكنها طبيعة يهود!

وثمة سبب معيب فى قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية..

ذلك، أنه لا يخفى أن كل مرئى يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية، وكذلك الشأن فى الأحداث والوقائع..

والأوربى ـ بطبيعته ـ ميال إلى اعتبار أوربا محور العالم، فهى نقطة الرصد فى نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث..

وإذا كان بدهياً أن أوربا لم تكن هى محور العالم فى كل عصور التاريخ، والأوربى لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر، حين ينظر إلى الماضى .. أدركنا مدى انحراف الزاوية التى ينظر بها الأوربى للحياة الإسلامية !

ومدى أخطاء الرؤية !

ومدى أخطاء التفسير والحكم.. الناشئة من هذه الرؤية المعينة !

ذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة، وانتفاء الأسباب التى تؤثر على هذه النزاهة!

فإذا نحن وضعنا فى الحساب ما لا بد من وضعه، وما لا يمكن إغفاله، من أسباب ملحة قاهرة عميقة، طويلة الأجل ، متجددة البواعث، تؤثر فى نظرة الأوربى للإسلام ، وللحياة الإسلامية، وللعالم الإسلامى :

من اختلاف فى العقيدة !

إلى كراهية لهذا الدين وأهله !

إلى ذكريات تاريخية مريرة !

إلى صراع سياسى واقتصادى واستعمارى !

إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية !

إلى آخر تلك البواعث القديمة المتجددة أبدا !

إذا نحن وضعنا فى الحساب ذلك كله ـ ولا بد أن نضعه، لنضع الأمور فى نصابها ـ وأضفنا إليه خطأ الرؤية... أمكن أن نتعرف حقيقة الدراسات الأوربية فى الحقل الإسلامى.. لا من قبول هذه الدراسات على علاتها فحسب... بل من قبول المنهج الذى قامت عليه، ومحاولة اتباعه فى دراساتنا الإسلامية على وجه خاص...

وإن نظرة على واقعنا بين الأمس واليوم، وعطاء السيرة النبوية بين الماضى والحاضر، تبصرنا بأن سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ليست هى مجرد سرد الحوادث .. إنما هى ـ فى نظرنا ـ تفسير هذه الحوادث ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة، امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان..

ويجب أن تكون المصادر المعتمدة فى المنهج الإسلامى هى المرجع المعوَّل عليه، مع تحرير النصوص وتنسيقها، وتطبيق قواعد التحديث رواية ودراية، وأن يعيش الباحث بعقله وروحه، ونفسه وحسه، وشعوره وإدراكه، فى جو الإسلام كعقيدة وفكر ونظام، وفى جو الحياة الإسلامية المباركة الطيبة كصورة واضحة المعالم والسمات، من حياة البشرية المثالية..

وهذه الحياة فى هذا الجو ضرورية جدا لتفتح نوافذ الإدراك جميعا ، لا لفهم تلك الحياة فحسب، بل لإدراكها ككائن حى، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع فى جسم هذا الكائن الحى(١).

وإنه ليعز على الباحث فى أية فترة من الحياة الإنسانية أن يدركها إدراكا حقيقيا داخليا، إلا أن يتجاوب معها بكل ذاتيته، وأن يعيش فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها،

---

(١) المرجع السابق: ٤٥ وما بعدها بتصرف .

فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية، وإن كانت أكثر وضوحا بالقياس إلى تلك الحياة ؛ لأن مقوماتها تختلف فى كثير من أنواعها وماهياتها عن مقومات ما عاداها ..

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة، دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية، ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة، وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل تلك العقيدة..

وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب عند باحث غير مسلم صادق مدرك، إلا إذا تجرد عن الهوى، وتخلص من التعصب !

ولا بد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس من خلال هذه الحياة الإسلامية وعلاقة هذه البواعث بالحوادث والتطورات..

ولابد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية.. لا فى شكلها الخارجى، وخطواتها العملية فحسب ، ولكن فى تفسيرها للعلاقات الكونية، والعلاقات الإنسانية، والعلاقات الاجتماعية ، وفى تصويرها لنظام الحكم ، وسياسة المال ، وطرق التشريع ، ووسائل التنفيذ .. إلخ ، وهى كلها من مقومات الحياة، وبالتالى من مقومات التاريخ لهذه الحياة ..

إن المعارك الحربية، والمعاهدات السياسية، والاحتكاكات الدولية.. وما إليها، مما يعنى به التاريخ غالبا أكثر من سواه.. إنها كلها محكومة بعوامل أخرى هى التى يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ ..

هذه العوامل هى التى يختلف الباحثون فى إدراكها وتقديرها.. كل يخضع للفلسفة التى تسيطر على تفكيره وتقديره، ولطريقة إدراكه للحياة فى عمومها..

وللباحث المسلم مزية هنا فى دراسة الحياة الإسلامية ؛ لأن طريقة إدراكه تمّت بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة فى سير التاريخ.. ومن ثم فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة..

وعلى ضوء إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية، وطريقة استجابة المسلمين لها.. يستطيع أن يزن دوافع الحياة الإسلامية فى تلك الفترة التاريخية، والقيم الإنسانية الكامنة فيها، وأسباب النصر والهزيمة فى كل خطوة ..

ويستطيع أن يتصور الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات الإنسانية فى مهد الإسلام الأول، وفى البلاد التى انساح فيها.. ومع القوم الذين وجه إليهم، ذلك أن الطبائع البشرية تختلف، والاستعدادات لتلقى الهدى تختلف.. ويضم إلى الجوانب الظاهرة التى لا يدرك غير المسلمين سواها فى الغالب، كل الجوانب الروحية التى يعدها الإسلام واقعا من الواقع، ويحسب لها حسابها فى سير الزمان، وتشكل الحياة فى كل زمان ومكان..

ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية..

ولما كان المسلمون جماعة من بنى الإنسان، فى حيز من الزمان والمكان..

ولما كان الإسلام رسالة كونية بشرية غير محددة بالزمان والمكان..

فإن التاريخ الإسلامى لا يمكن فصله من التاريخ الإنسانى..

وقد تأثرت تلك الفترة ـ من غير شك ـ بتجارب البشرية كلها من قبل، وبخاصة تلك العوامل التى كانت واقعة عند مولد الإسلام، ثم أثرت بدورها فى تجارب البشرية من بعد، وبخاصة تلك الجهات التى امتدت إليها أو جاورتها..

فلابد إذن عند الكتابة فى هذا المقام من الإلمام بالصورة التى انتهت إليها تجارب الإنسانية قبيل مولد الإسلام ، والحالة التى صارت إليها المجتمعات البشرية فى الأرض ، وبخاصة من ناحية العقائد الدينية، وسائر ما يتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات، ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية، وما يتعلق بها من نظم الحكم، وسياسة المال، وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار ، كى يتبين على ضوئها حقيقة دور الإسلام ، وحقيقة طبيعته..

ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولا أو رفضا..

ويمكن ـ كذلك ـ تصور أسباب الصراع، وعوامل النصر والهزيمة، وعناصر التفاعل والتدافع، والتلاقى والانعكاس، على مر الأيام..

وإذا كان الإلمام بوضع العالم إذ ذاك ضروريا، فإن الإلمام بوضع شبه الجزيرة العربية وتصور الحياة فيها، من كافة نواحيها.. أكثر ضرورة ؛ لأنها المهد الأول للإسلام من جهة، ومركز التجمع والانسياح من جهة أخرى..

ترى، هل كانت مصادفة عابرة أن يظهر خاتم النبيين الحبيب المحبوب ﷺ فى هذا الموضع من الأرض فى هذا الزمان ؟

إن هنالك نظاما مقدورا، وقصدا مقصودا، وتدبيرا معينا، وترتيبا موضوعيا، لتلقى هذه الظواهر، حيث التقت ، كى تؤدى دورا معينا، ليس أقل نتائجه تخطيط خريطة العالم .. فى عالم الظاهر .. وفى عالم الشعور .. على هذا الوضع الذى صارت إليه الأمور ، منذ ذلك التاريخ البعيد !

وهذا يسوق إلى دراسة حياة خاتم النبيين الحبيب المحبوب ﷺ فى هذا السياق الكونى للتاريخ ..

وتسوق هذه الدراسة، من كل جوانبها، وسائر ما يحيط بها، إلى أن ندرك نظاما مقدورا، وقصدا مقصودا، وموافقات مدبرة، فلم تكن هناك مصادفة عابرة فى الاختيار لهذا الحدث الكونى الذى لم يسبق ولم يلحق بنظير..

ومن ثم تتبين المعالم الكلية التى تضمنها هذا الحدث قبل البدء فى دراسة الأحداث العالمية التى تمت على هذا الأساس..

وبذلك تتهيأ صورة مستكملة الجوانب لكل الأوضاع والأحوال التى نشأت عنها الاستجابات التى وقعت بالفعل فى تاريخ الإسلام، فى الفترة التى تلت ظهوره، كما يتهيأ تفسير هذه الاستجابات تفسيرا صحيحا مستكملا لكل عناصر الحكم والتقدير.

وبذلك يستحيل التاريخ عملية استبطان وتجاوب فى ضمائر الأشياء والأشخاص، والأزمان والأحداث، ويتصل بناموس الكون، ومدارج البشرية، ويصبح كائنا حيا.. ومادة حياة ..

ومتى استقام البحث على ذلك المنهج .. وبرزت تلك المقومات الأساسية لحقيقة الرسالة والرسول ﷺ، وطبيعة البيئة التى استقبلت الدعوة، واستقبلت الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وطبيعة المجتمع الإنسانى الذى كان يعاصر مولد الإسلام، وطبيعة العقائد والأفكار التى تسوده يوم ذاك..

متى برزت تلك المقومات الأساسية.. سهل تتبع نشاطها وتفاعلها وصيرورتها ، وأمكن تصوير وتصور خطوات الدعوة على عهد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، هذه

الخطوات التى تسير متأثرة فى هذا الجيل تدفعنا أن نعرف :

كيف تجمع المسلمون حول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ؟ ومن أى نوعية كانوا ؟

من المشـركيـن؟

من اليـهـود؟

من النصـارى ؟

وكيف صـاغ الرسـول الحبيب المحبوب ﷺ هؤلاء وأولئك؟ وكيف أعدهم للمهمة العظمى؟

وكيف بنى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ نظامه، وعلى أى أساس قام هذا النظام؟

وماذا كان عند هؤلاء وأولئك .. من استعداد لتلبية هذا الحدث أو معارضته؟

وما هو الواقع الحقيقى لكل جزئية من جزئيات هذه السيرة؟

إلى آخر هذه المباحث التى تصورالمرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام ، التى أعقبتها المرحلة الثانية:

مرحلة المد الإسلامى..

عندما انسـاح الإسلام فى مشـارق الأرض ومغاربهـا ..عندما فاض ذلك الفيض الانفجارى العجيب، الذى لم يعرف له العالم نظيرا فى سرعته، وفى قوته..

لا من ناحية الفتح العسكرى وحده.. ولكن من ناحية التأثير الروحى، والفكرى، والاجتماعى ، أيضا..

من الناحية الإنسانية الشاملة التى شهدت تحولا كاملا فى خط سيرالتاريخ، على مولد هذا الدين القيم، وانتشاره ذلك الانتشار العجيب!

وهنا تبدو قيمة هذا المنهج الذى أشرنا إليه..

ويمكن تتبع أعمال الهدم والبناء التى قامت فى تلك المساحة الفسيحة التى امتد إليها الدين القيم ..

ويمكن ـ كذلك ـ تتبع تفاعله مع الأفكار والعقائد التى كانت سائدة أو سائرة فيها.. ومع النظم الاجتماعية التى كانت تظللها.. ومع الظروف الاقتصادية، والمخلفات التاريخية، والملابسات الإنسانية.. فى أخصب بقاع الأرض وأكثرها حضارة فى ذلك الزمان..

والمد الإسلامى لم يقف عند الحدود التى وصلت إليها فتوحاته العسكرية، فلقد امتدت الموجة الفكرية، والحضارة التى كونها، إلى ما وراء حدود العالم الإسلامى قطعا..

ولا بد من دراسة آثار هذا المد فيما وراء هذه الحدود.. ودراستها طردا وعكسا، فى حياة العالم الإسلامى ذاته، وفى حياة العالم الإنسانى كله..

ودراسة هذه التفاعلات فى ضوء المنهج الذى أشرنا إلى معالمه كفيلة بأن تنشىء صورة واضحة السمات للعالم الإنسانى وخطواته الحية، مختلفة عن الصورة التى اعتاد غير المسلمين أن يرسموها، والتى اعتدنا نحن أن نراها فى كتاباتهم! والتى يعتنقها الكثيرون من أبناء جلدتنا، والذين يتكلمون بألسنتنا، ويدافعون عنها أكثر من دفاع أساتذتهم المستشرقين!

ثم يجىء دور انحسار المد الإسلامى!

وعلى ضوء هذا المنهج، وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة، يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار، وعوامله الداخلية والخارجية جميعا.. وهنا نتساءل:

هل كان هذا الانحسار شاملا أم جزئيا، وسطحيا أم عميقا؟

وما أثر هذا الانحسار فى خط سير التاريخ، وفى تكييف أحوال البشر، وفى قواعد التفكير والسلوك، وفى العلاقات الدولية والإنسانية؟

وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التى استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها فى الإسلام؟

وماذا كسبت البشرية، وماذا خسرت، من وراء انحسار المد الإسلامى، وظهور المد الإلحادى؟!

ومن ثم يصبح الحديث عن العالم الإسلامى طبيعيا وفى أوانه، وقائما على أسسه الواضحة الصحيحة، وليس حديثا تمليه العاطفة، أو يحدوه التعصب من هذا الجانب أو

ذاك، ويصبح الحديث عن القديم والحديث ـ وفق هذا المنهج ـ مسلسل الحلقات، متشابك الأواصر، ويتحدد دور الإسلام فى هذا التاريخ ..فى الماضى وفى الحاضر... وتتبين خطوطه فى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر..

ومن ثم يتم استعراض السيرة النبوية فى وحدة موضوعية.. مثل موضوعنا هذا..

وذلك وفق معطيات القرآن الكريم..

والسنة النبوية الصحيحة.. وفق أصول التحديث: رواية ودراية..

والإفادة من الأرضية التاريخية الثابتة، التى تحركت فوقها الأحداث ونمت، واكتسبت ملامحها النهائية..

والنظرة الشمولية التكاملية، التى تدرس حركة الإسلام فى منهج شامل كامل، له خصائصه..

فى إطار القيم والتوجيهات، والقواعد والأسس، التى جاء بها الدين القيم، ليقيمها فى قلوب الجماعة المسلمة عبر التاريخ، وفى حياتها كلها على سواء..

وهكذا تصبح هذه الأحداث مادة للتربية .. ودليلا وترجمانا للحياة الإسلامية الممتدة وأحداثها..وعوامل البناء، ومعاول الهدم..

ومن ثم نبصر التقابل بين العوامل والمعاول.. والحق والباطل.. على سواء..

وأرجو أن أتحدث بالتفصيل فى بحث خاص عن السيرة النبوية بين السرد التاريخى ومناهج البحث من جهة ، والتفسير الموضوعى ومعالم التربية من جهة ثانية، والحركة الاستشراقية والمنهج المعكوس الذى يحمل التناقض العجيب وعطاء السيرة بين الماضى والحاضر من جهة ثالثة..

حقا، إن السيرة النبوية فيض من العطاء متدفق، لا يفيض ماؤه، ولا يتوقف عطاؤه، ومن أخلص النية، وجرد الطوية، وطرح الغرض، وتخلص من الهوى، وابتعد عن الردى، وأحب الحق، وعقد العزم، وجدّ فى الطلب، فلابد أن تتفتح له كوة جديدة عميقة مشعة بنور الحق والحقيقة، يستضىء بها ويضىء..

وإذا كنا قد ودعنا قرنا حافلا بالمآسى الصارخة، والعبر القارعة، فإننا نعيش بداية القرن

الخامس عشر الهجرى، الذى يطرق أبواب التاريخ..

وعجلة الزمن تطوى بنا يوما بعد يوم، وحين تطوى نقف على مفرق الطريق..

وما أحوجنا فى هذه اللحظة الفارقة أن نحاسب أنفسنا على الماضى ، فنندم على الأخطاء، ونستقيل العثرات، ونقوم المعوج، ونستدرك ما فات..

وعلى المستقبل، فندرك أن جيلنا قد ولد فى منعطف تاريخى ، أفضى به - فى مجموعه - إلى أن تنفرج الشقة بين سلوكه وبين الشمول والتكامل فى الفكر والتشريع، ولفه ضباب الشعارات البراقة، فى إطار ماكر جائر، من هؤلاء الجاهلين، الذين أرادوا تحقيق شهواتهم، ونشر ضلالاتهم،جاهدين ألا ينكشف حالهم، ويتعرى هدفهم..

ومن ثم حالوا بيننا وبين حقيقة الإسلام فى الوحدة والتوحيد، والفكر والسلوك ، والحياة والتشريع..

وأقاموا فصاما نكدا بيننا وبين هذه الحقائق التى ينطبق بها اللسان معبرا عن العقيدة التى تعمر الجَنان :

الله غايتنا ..

والرسول قدوتنا..

والقرآن شريعتنا..

والجهاد سبيلنا..

والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا.

ومن ثم ركزوا على تمكين غيبوبة الضمير، والعقل والوعى، عن واقع المسير، فى الضباب الكثيف، وما يجر إليه من سوء المصير!

وهذا الواقع أقوى من إنكار المنكرين، وجحود الجاحدين !

ولن يفقد الحقيقة هويتها أن يكفر بها معاند ماكر، أو يتسلط عليها مخادع جائر!

وعلينا أن ندرس سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ دراسة موضوعية منهجية تعيننا على فهم معالم طريق النجاة..

وها نحن نبصر الفجر قد أشرقت أنواره، وبدت مطالعه..

ونبصر قلوبا تتطلع إلى الخير، والمستقبل المليء بالخير..

ونحس بأننا نتطلع إلى تكوين الشخصية الإسلامية، والدولة الإسلامية..

ويحدونا الأمل والبشر، ونحن نذكر قول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما يرويه أبو داود وغيره بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه:

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنةمن يجدد لها دينها » (١).

ويزداد الأمل والبشر، ونحن نعيش فى رحاب السيرة النبوية التى تضع يدنا على معالم طريق النصرعلى اليهود وغيرهم.. كلما تمعنا فى أطيافها قرأنا شجنا، واستعرضنا جهادا، وتبينا استشهادا، ولمسنا صدقا، وأبصرنا يقينا..

وهذه المعالم حين تستقر فى الجَنان المؤمن، يستحيل أن تظل مجرد شعور وجدانى فى أعماق الضمير.. وإنما تندفع بصاحبها لتحقق ذاتها فى عالم الواقع، ولتمثل حركة إبداعية فى عالم المنظور، تبدع الحياة كلها، وما ينشأ عنها من أطياف :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (٢).

وإذا كنا قد أبصرنا كيف اقتحم جيشنا فى العاشر من رمضان المعظم ١٣٩٣هـ ـ ٦ أكتوبر ١٩٧٣م خط بارليف الذى كان أسطورة من أساطير الفنون الحربية فى العصر الحديث، باعتباره سدا منيعا لا تتخطاه الجيوش، ولا تنال منه أسلحة الهدم والتدمير ـ هكذا قال اليهود عن هذا الخط، وهكذا شهد خبراء الحرب فى العالم بأنه إن لم يكن على هذا الوصف الخارق، فإنه قريب منه ـ فإننا يجب ألا ننسى شعار هذه الحرب، وهو:« الله أكبر»، ومن ثم فقد رأينا ما كان من إمدادات تفوق كل ما هو متوقع تقف بجانب اليهود.. حتى لا تكون هزيمتهم ؛ لأن هذا الاقتحام كان خطوة لإزالة ما رمتنا به نكسة١٩٦٧م.

---

(١) أبو داود:(٤٢٩١) ، والحاكم: ٤: ٥٢٢، والبيهقى فى معرفة السنن والآثار: ٥٢ ، وانظر الأقوال فى معنى التجديد والمجددين فى: عون المعبود :١١: ٣٨٥ ـ ٣٩٦.

(٢) البقـرة : ١٣٨ .

ورغم الضباب الذى لف القضية والمعركة، والقيل والقال، فى شأن الدوافع الكامنة وراء ذلك، فإننا نؤمن بأن هذا الاقتحام كان بلا شك عملا مميزا جديرا بالوقوف أمامه طويلا، وجديرا بأن نذكرالدرس والعبرة، حين رفع الجند شعار:« الله أكبر » هذا الشعار الذى يجب أن نجتمع حوله، ونرفعه عاليا خفاقا، ونحمل أعناقنا على أكفنا فداء وتضحية فى سبيله:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (١).

وعلى أية حال، فإننا ما نزال نعانى من معركتنا من اليهود، وما زالت قضيتنا معهم قائمة، بل نتج عن هذه الحرب الأخيرة اختلاف وجهات النظر فى حل القضية، مما لا يحتاج إلى بيان ؛ لأنه واقع أليم!

ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى أن نتعرف معالم طريق النصر، دون ما تشنج فى العبارة، وإسفاف فى القول، فالواقع يندى له الجبين!

ولست أرى من سبيل تجتمع عليه وجهات نظر المؤمنين إلا التأسى بموقف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من اليهود، وموقفهم منه، من خلال معرفة سماتهم عبر تاريخهم وفكرهم وموقفهم من الرسالة والرسول ﷺ .. ومن خلال الغزوات الخاصة باليهود، حيث كان لهم فى شبه الجزيرة ما كان، ولم يتبين عداؤهم فى أول الأمرسافرا، ولكن ما لبثوا أن كشفوا عن سماتهم وأعلنوا الحرب والعدوان ، وواجههم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ..

ومن هنا آثرت أن أقدم هذه الدراسات بهذا العنوان : « الرسول ﷺ واليهود وجها لوجه» لأنى أومن يقينا أن كل مؤمن صادق لا يسعه إلا أن يتعرف موقف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من اليهود، ولا يسعه ـ كذلك ـ إلا أن يقر بأن هذا الموقف هو وحده الذى يجب أن نؤمن به جميعا، وندعو إليه، ونتجمع فى رحابه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢).

---

(١) الروم: ٤ ـ ٥. (٢) الأحزاب : ٢١ .

وسبق أن قدمت هذه الدراسات فى إذاعة القرآن الكريم صباحا من الكويت، كما أذيعت فى البرنامج العام مساء، طيلة سبعة أشهر كاملة.. مما ترتب عليه التهديد بالاغتيال.. وما كان لى أن أتلفت أو أتخير ما دمت أقول الحق..

اللهم : أحينا بمعرفتك ، وأمتنا على الشهادة فى سبيلك.. آمين آمين آمين.

ومن ثم آثرت إعادة النظر فيها وتقديمها للطبع.. رجاء أن نبصر أصحاب الأيادى المتوضئة الذين يتنزل عليهم وعد الله بالنصر، ويحق وعد الله على شر خلق الله..

وقد اقتضت منهجية البحث أن تشتمل هذه الدراسات على ما يأتى:

١ـ أسطورة الوطن اليهودى.

٢ـ الفكر اليهودى.

٣ـ موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ.

٤ـ الطبيعة اليهودية.

٥ـ التآمر اليهودى على حياة الرسول ﷺ.

٦ـ اليهود والخيانة.

٧ـ القضاء على اليهود عسكريا.

٨ ـ محاكمة اليهود.

٩ ـ الخطر اليهودى .

١٠ـ معالم النصر على اليهود.

وها نحن نبدأ الحديث عن « أسطورة الوطن اليهودى »

وقد اقتضت منهجية البحث أن تشتمل على ما يأتى :

الفصل الأول : بنوإسرائيل .

الفصل الثانى : بين مصر وفلسطين .

الفصـل الثالث : فى الأرض المقدسـة .

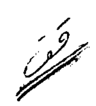
الفصـل الرابع : فى الجزيرة العربيـة .

والله أســأل: التوفيق والســداد، والعون والرشـاد.

إنه ســميع مجيب !

الكويت فى : ٢٦ جمادى الآخـرة ١٤١٢ هـ
١ ينـايــــر ١٩٩٢م

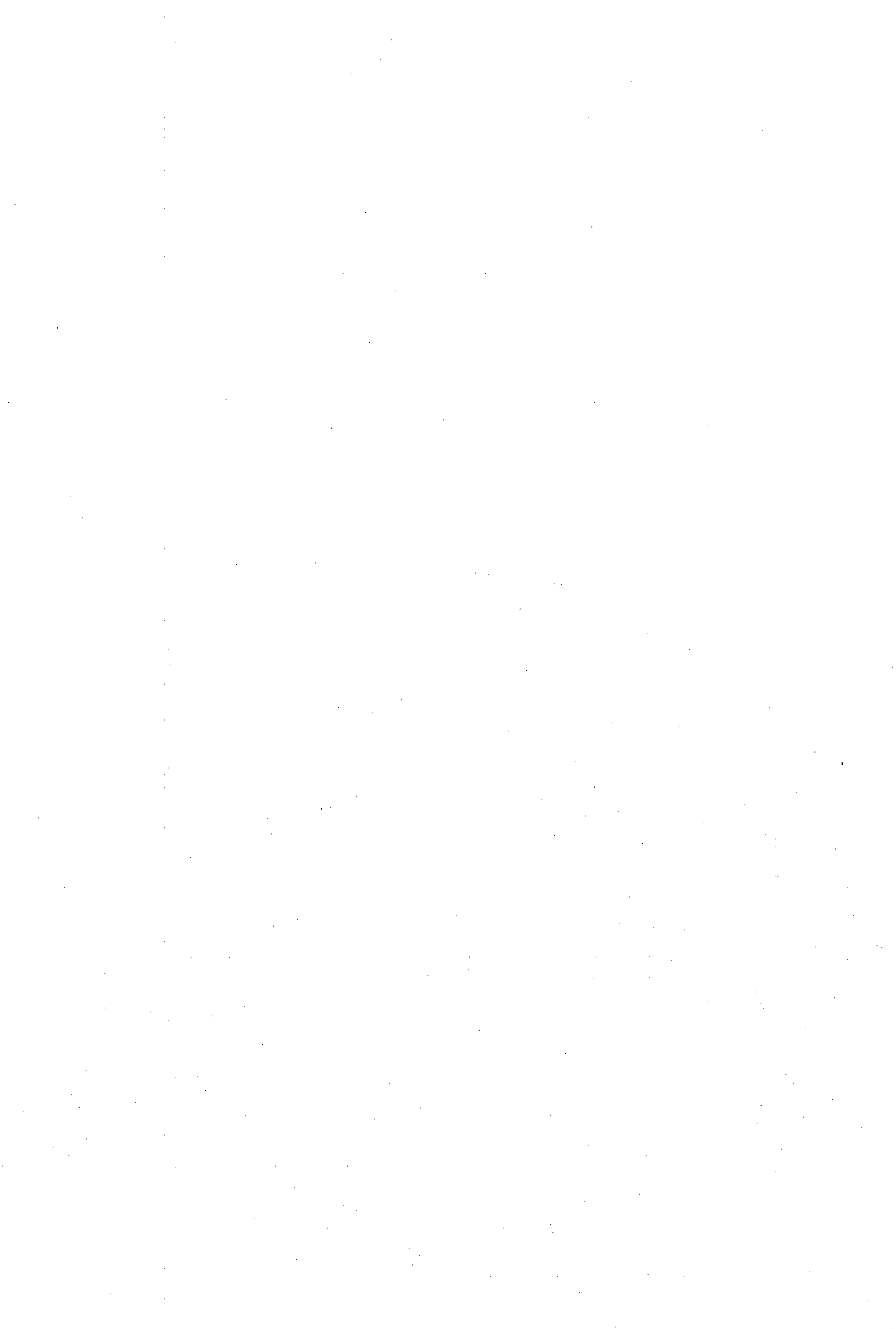
سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)



الفصل الأول

بنو إسرائيل

أضواء على التسمية ـ إسرائيل فى القرآن ـ الأسباط ـ الوحدة الكبرى ـ إسلام يعقوب ـ وصية يعقوب لبنيه ـ القرآن يسأل بني إسرائيل ـ أمتان مختلفتان ـ ليسوا من بني إسرائيل .



أضــواء على التسمية:

يقال[1]: بنو إسرائيل، والعبرانيون، واليهود، كلهم بمعنى واحد عند كثير مـن الناس، ويطلقون على هذا الجنس الذى اشتهر : اسم اليهود.

أما بنو إسرائيل فنسبة إلى إسرائيل، الذى هو: يعقوب ـ عليه السلام ـ :

وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من« إسرا »[2] بمعنى عبد أو صفوة، ومن« إيل » وهو الله، فيكون معنى الكلمة « عبد الله» أو « صفوة الله ».

وقد اختلفت الآراء[3] فى سبب تسميتهم بالعبريين أو العبرانيين:

فقيل: إنهم سموا بالعبرانيين نسبة إلى إبراهيم نفسه، فقد ذكر فى سفر التكوين باسم (إبراهيم العبرانى) لأنه عبر نهر الفرات وأنهارا أخرى.

وقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى « عِبْر » وهو الجد الخامس لإبراهيم.

وقد خالف الدكتور« إسرائيل ولفنسون» [4] الرأيين السابقين، وأبدى رأيا ثالثا فى سبب التسمية فقال:إن كلمة « عبرى » ترجع إلى الموطن الأصلى لبنى إسرائيل، وذلك أنهم كانوا فى الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى، وكلمة « عبرى» فى الأصل مشتقة من الفعل الثلاثى« عبر » بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الـوادى أو النهـر، مِن عَبره إلى عَبره، أو عبَر السبيل:شقها، وكل هذه المعانى موجودة فى هذا الفعل، سواء فى العربية والعبرية، وهى فى جملتها تدل على التحول والتنقل الذى هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء وأهل البادية، فكلمة « عبرى» مثل كلمة « بدوى» أى ساكن الصحراء أو البادية، وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بنى إسرائيل بالعبريين لعلاقتهم بالصحراء، وليميزوهم عن أهل العمران، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان، وعرفوا المدنية والاستقرار، صاروا ينفرون من كلمة«عبرى» التى كانت تذكرهم

---

(١) اليهودية والصهيونية : ١١ بتصرف .

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١:٦ .

(٣) المرجع السابق: ٣ بتصرف .

(٤) الدكتور « إسرائيل ولفنسون » كان مدرسا للغات السامية بكلية دار العلوم، ثم هاجر إلى فلسطين، ومات بها قبل أن تقوم دولة إسرائيل . المرجع السابق : ٤ هامش.

بحياتهم الأولى، حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا: «ببنى إسرائيل فقط» [1].

ورجح بعضهم الرأى الأول فقال[2] ـ بعد أن نقل بعض الأقوال فى ذلك ـ : ومما يؤكد هذا الرأى ما جاء فى سفر يشوع : «هكذا قال الرب إله إسرائيل فى عَبْر النهر، سكن آباؤكم منذ الدهر» ثم قال: إن هذه اللفظة لم تظهر إلا بعد اجتياز إبراهيم نهر الفرات، هذا فضلا عن أن الأخذ بهذا الرأى أقرب إلى الصحة من الرأيين الآخرين. كيف لا وهو رأى معظم العلماء وفحولهم؟

وأما الرأى الثانى فالأخذ به صعب ؛ لأن بين إبراهيم الذى كان أول من وصف بهذه التسمية وبين عابر أو عبر مدة ستة أجيال متوالية، فلو شاء إبراهيم أن ينسب إلى أحد أجداده لكان من البدهى أن يعزى إلى « سام» أشهر أجداده.

ولو كانت النسبة إلى عابر فلِمَ لمْ ترد فى الكتاب طيلة ستمائة سنة؟ ولِمَ لمْ يسم بها إبراهيم قبل عبوره نهر الفرات وهو بعد فى أرضه وعشيرته؟ وما الحكمة فى نسبته إلى عابر دون غيره؟ ولِمَ لمْ ينوّه كاتب التوراة بذلك؟ هذا كله يحملنا على استبعاد هذا الرأى من الأذهان.

أما الرأى الثالث فلا يركن إليه؛ لأنه لو كانت التسمية متأتية من الهجرة والتنقل لكانت معظم الأمم السامية نعتت بها. أليس الدكتور « ولفنسون » نفسه عند كلامه عن مهد الساميين الأصلى والحركات عند أغلب الأمم يقول:« يلاحظ فى مظاهر أغلب هذه الأمم أنها مظاهرتكاد تكون صحراوية، فعواطف هذه الأمم وخيالها واتجاه أفكارها مما يشعرنا بروح الصحراء « فإذا كانت التسمية متأتية من التنقل وحياة البداوة كقوله، فلِمَ لَمْ تُدْعَ بها كل الأمم السامية؟ ولم خصت بالإسرائيليين وقد كانوا ينفرون منها كما زعم هو نفسه؟

وإذا صح قول الدكتور « إسرائيل ولفنسون» أن العبرانيين كانوا ينفرون من هذه التسمية، وبعد أن استقروا وتحضروا استبدلوها بالإسرائيلى، فلماذا لم يستبدلوا أيضا اسم

---

(١) تاريخ اللغات السامية : ٧٧.

(٢) إسحاق ساكا : مجلة العربى الكويتية : العدد ٩١ : ١٥١ سنة ١٩٦٦ بعنوان معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى..

لغتهم العبرانية بالإسرائيلية؟ فرأيه إذن لا يقوم على الدليل المقنع ، وبالتالى فيكون الرأى الأول هو المعقول، ويجب الأخذ به.

ويقول الدكتور« إسرائيل ولفنسون » : « ليس فى صحف العهد القديم ما يدل على أنهم كانوا يسمون لغة بنى إسرائيل باللغة العبرية، بل كانت تعرف باسم اللغة اليهودية، وطوراً باسم لغة كنعان، ولم تعرف باسم العبرية أو اللغة المقدسة إلا بعد السبى البابلى فى كتاب ابن سيرا ، وفى مصنفات المؤرخ اليهودى « يوصف » ، وفى « المشنا » و « التلمود » [١].

وذكر بعض الباحثين[٢] أن الكنعانيين هم الذين أطلقوا على الذين هاجروا إلى فلسطين كلمة« العبرانيين » تمييزا لهم عن الكنعانيين أصحاب البلاد الأصلاء، وللدلالة على أن العبرانيين الذين يدَّعون أنهم من نسل إبراهيم من الشعوب الوافدة على أرض الكنعانيين.

وكل المصادر مجمعة على أن العبرانيين غرباء على أرض فلسطين ، مثلما هم غرباء على أرض مصر .

والكنعانيون هم أصحاب فلسطين منذ عصور أقدم بكثير من العبرانيين، وهم سبقوا فى امتلاكها سيدنا إبراهيم والعبرانيين قبل نزوحهم إليها بآلاف السنين .

وأيا ما كان الأمرفالعبرية ليست واضحة النسبة ، كما تفصح الأقوال والروايات المختلفة، ولم يكن الكنعانيون وحدهم هم الذين يطلقون عليهم كلمة« العبرانيين» بل كان المصريون والفلسطينيون يطلقون عليهم ذلك الاسم، لتكون علامة فارقة بينهم وبين الجنس البدوى الغريب الوافد على أرض غريبة عنه.

وأما سبب تسميتهم باليهود، من هاد يهود هوْداً، وتهوّد، فهو هائد[٣]، وفى التنزيل العزيز:

﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [٤] .

---

(١) المرجع السابق : تاريخ اللغات السامية : ٧٨.

(٢) اليهودية والصهيونية : ١٣ وما بعدها بتصرف .

(٣) تاج العروس : (هود) . (٤) الأعراف : ١٥٦.

أى تبنا ورجعنا إليك. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمى والسدى وقتادة وغير واحد، وهو كذلك لغة[1].

وسمّيت اليهود اشتقاقا من هادوا: أى تابوا، وأرادوا باليهود اليهوديّين، ولكنهم حذفوا ياء الإضافة [2]. وتهوّد الرجل: صار يهوديا، وتهوّد فى مشيه: مشى مشيا رفيقا تشبها باليهود فى حركتهم عند القراءة. وفى شفاء الغليل: يهودا، معرّب يهوذا ـ بذال معجمة ـ ابن يعقوب عليه السلام.

يقول الدكتور جواد على: « ولفظة يهودا» أعم من لفظة « عبرانيين » و « بنى إسرائيل » ، ذلك أن لفظة« يهود» تطلق على« العبرانيين » وعلى غيرهم ممن دخل فى دين يهود، وهو ليس منهم، وقد أطلق « الإسرائيليون » وأهل « يهوذا » لفظة « يهود »على أنفسهم، وعلى كل من دخل فى ديانتهم تمييزا لهم عن غيرهم ممن لم يكن على هذا الدين ، وهم الغرباء[3].

إســـــرائيل فى القرآن :

وقد تحدث القرآن عن « إسرائيل » فى موضعين :

الأول : فى قوله تعالى :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4].

وهنا ـ كما يقول ابن كثير ـ مناسبتان : [5].

إحداهما :: أن إسرائيل عليه السلام حرّم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغا فى شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله:

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾[6]

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢: ٢٥٠.

(٢) تاج العروس : (هـود) .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦: ٩٥ ط المجمع العلمى العراقى .

(٤) آل عمران : ٩٣.

(٥) تفسير ابن كثير : ١: ٣٨٢ بتصرف .

(٦) آل عمران : ٩٢.

فهذا هو المشروع عندنا، وهو الإنفاق فى طاعة الله، مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال تعالى:

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ (١).

وقال تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ (٢).

المناسبة الثانية: لما تقدم بيان الرد على النصارى واعتقادهم الباطل فى المسيح، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه، وظهور الحق واليقين فى عيسى وأمه، كيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بنى إسرائيل، يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى، شرع فى الرد على اليهود قبحهم الله تعالى، وبيان أن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله تعالى قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فى ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخرى زيادة على ذلك، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم فى تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التسرى على الزوجة مباحا فى شريعة إبراهيم عليه السلام، وقد فعله إبراهيم فى هاجر لما تسرى بها على سارة وقد حرم مثل هذا فى التوراة عليهم، وكذالك كان الجمع بين الأختين سائغا، وقد فعله يعقوب عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حرم عليهم ذلك فى التوراة، وهذا كله منصوص عليه فى التوراة عندهم، وهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام فى إحلاله بعض ما حرم فى التوراة، فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه ؟!

وكذلك ما بعث الله به محمدا ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم، فما بالهم لا يؤمنون ؟!

ولهذا قال تعالى:

﴿ كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ .

---

(١) البقرة: ١٧٧ . (٢) الإنسان : ٨.

أى كان حلا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى:

﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ .

فإنها ناطقة بما قلناه.

قال الزمخشرى (١) : الآية رد على اليهود وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٢) .

وفى قوله :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٣) .

وجحودَ ما غاظهم واشمأزوا منه، وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم . فقالوا : لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وإبراهيم، ومَن بعده مِن بنى إسرائيل، وهلم جرا. إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله، وأكل الربا، وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم.

وهكذا تتكشف(٤) هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم، وفضح تعلاتهم، وعدم الاستجابة للرسول ﷺ وتعنتهم، ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم..

---

(١) تفسير القاسمى : ٤ : ٨٩٢.

(٢) النساء : ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) الأنعام : ١٤٦.

(٤) فى ظلال القرآن : ٢ : ٨٠٣ بتصرف .

وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود فى الصف المسلم، ويسقط ويتهاوى كيدهم ومكرهم وحبائلهم!

وتعرف الجماعة المسلمة ـ ما ينبغى أن تعرفه الأمة المسلمة فى كل حين ـ عن طبيعة اليهود وجبلتهم، ووسائلهم وطرائقهم، ومدى وقوفهم للحق فى ذاته، سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم! فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحملته.. فى كل أجيالهم، وفى كل أزمانهم! مع أصدقائهم! ومع أعدائهم! لأن جبلتهم عدوة للحق فى ذاته، جاسية قلوبهم، غليظة أكبادهم،لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة! ولايسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم!

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق،ليقصر على الجماعة المسلمة الأولى فى المدينة.. فالقرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته فى أمرهم نصح لها، وإذا استرشدت به أرشدها.. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها فى شأن يهود، فدانت لها رقابهم.. ثم لما اتخذته مهجورا دانت هى لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهى غافلة عن كتابها.. القرآن.. شاردة عن هديه، ملقية به وراءها ظهريا! متبعة قول فلان وفلان! وستبقى كذلك غارقة فى كيد يهود، وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن..

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود، حتى ينصف القليل المؤمن منهم، ويقرر حسن جزائهم، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العميق، ويشهد لهم بالعلم والإيمان، ويقرر أن الذى هداهم إلى التصديق بالدين كله: ما أنزل إلى الرسول ﷺ، وما أنزل من قبله، هو الرسوخ فى العلم، وهو الإيمان:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

فالعلم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله.. كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذى جاء من عند الله الواحد..

---

(١) النساء: ١٦٢.

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقا إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذى يفتح القلب للنور، لفتة من اللفتات القرآنية التى تصور واقع الحال التى كانت يوم ذاك، كما تصور واقع النفس البشرية فى كل حين. فالعلم السطحى كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة.. ونحن نشهد هذا فى كل زمان. فالذين يتعمقون فى العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقى، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلها واحدا مسيطرا مدبرا متصرفا، وذا إرادة واحدة، وضعت ذلك الناموس الواحد.. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى .. أما الذين يتناوشون المعلومات، ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان، أولا تبرز لهم ـ بسبب علمهم الناقص السطحى ـ علامات الاستفهام. وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم ولا تشتاق.. وكلاهما هو الذى لا يجد فى نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان، أو يجعل التدين عصبية جاهلية، فيفرق بين رسالات الرسل التى جاءت من عند الله، على أيدى موكب واحد متصل من الرسل، صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين..

والموضع الآخر الذى ذكر فيه إسرائيل: هو فى حديث القرآن الكريم عمن أنعم الله عليهم من الأنبياء، والأصول التى ينتمون إليها، فكان إسرائيل أصلا من أصول النبوات، وأبا للكثير منهم، يقول تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (١).

وهنا نبصر السياق يستعرض أولئك الأنبياء (٢)، ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم، سواء من مشركى العرب أو من مشركى بنى إسرائيل.. فإذا المفارقة صارخة، والمسافة شاسعة، والهوة عميقة، والفارق بعيد بين السلف والخلف:

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) المرجع السابق: ٤: ٢٣١٤ بتصرف.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ (١) .

ويقف السياق فى هذا الاستعراض عند المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية.. فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل من بعده، وإبراهيم يشمل فرعى النبوة الكبيرين: ويعقوب يشمل بنى إسرائيل، وإسماعيل وإليه ينتسب العرب، ومنهم خاتم النبيين..

أولئك النبيون، ومعهم من هدى الله، واجتبى من الصالحين من ذريتهم.. صفتهم البارزة:

﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ .

فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدا وبكيا..

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله.. خلف من بعدهم خلف، بعيدون عن الله.. فما أشد المفارقة، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء!

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين ! يتهددهم بالضلال والهلاك!

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمى :

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا ﴾ .

الأسباط :

وأرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا (٢)، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا فقال جل شأنه:

---

(١) مريم : ٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير : ١: ١٨٧ بتصرف.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (١).

ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وألا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ (٢).

قال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط.

وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى بنى إسماعيل.

وقال الزمخشرى: الأسباط حفدة يعقوب، ذرارى أبنائه الاثنى عشر، وقد نقله الرازى عنه وقرره ولم يعارضه.

وقال البخارى: الأسباط قبائل بنى إسرائيل، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط ها هنا شعوب بنى إسرائيل، وما أنزل الله من الوحى على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم :

﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٣).

وقال تعالى :

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا ﴾ (٤).

---

(١) البقرة: ١٣٦.
(٢) النساء : ١٥٠ ـ ١٥١.
(٣) المائدة: ٢٠.
(٤) الأعراف: ١٦٠.

قال القرطبى(١) : الأسباط ولد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر ولدا، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سِبط. والسِّبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل، وسُمُّوا الأسباط من السّبط، وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل أصله من السَّبَط ـ بالتحريك ـ وهو الشجر، أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبَطة.. والسِّبْط : الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد.

الوحدة الكبرى :

وتلك هى الوحدة الكبْرى بين الرسالات جميعا، وبين الرسل جميعا، وهى قاعدة التصور الإسلامى(٢)، وهى التى تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتراث العقيدة ، القائمة على ديـن الله فى الأرض، الموصلة بهـذا الأصل العريق، السائـرة فى الدرب على هدى ونور، والتى تجعل من النظام الإسلامى النظام العالمى الذى يملك الجميع الحياة فى ظله، دون تعصب ودون اضطهاد، والتى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا مفتوحا للناس جميعا فى مودة وسـلام.

إسـلام يعقوب :

ويبرز السياق القرآنى أن الإسلام ـ بمعنى إسـلام الوجه لله وحده(٣) ـ كان هو الرسالة الأولى، وكان هو الرسالة الأخيرة.. هكذا اعتقد إبراهيم، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب ـ وهو إسرائيل ـ والأسباط، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى .. ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين.. فمن استقام على العقيدة الواحدة فهو وريثها ووريث عهودها وبشاراتها .. ومن فسق عنها، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم، فقد فسق عن عهد الله، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته :

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٤).

---

(١) تفسير القرطبى : ٢: ١٤١.

(٢) فى ظلال القرآن: ١:١١٨ بتصرف.

(٣) المرجـع السـابق: ١١١ بتصرف.

(٤) البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٢ .

هـذه هـى ملة إبراهيـم عليه السلام .. الإسلام الخالص الصريح .. لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه، سفيه عليها، مستهتر بها.. إبراهيم الذى اصطفاه ربه فى الدنيا إماما، وشهد له فى الآخرة بالصلاح.. اصطفاه « إذ قال له ربه أسلم» فلم يتلكأ، ولم يرتب، ولم ينحرف، واستجاب فور تلقى الأمر: ﴿ **قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ .

هذه هى ملة إبراهيم عليه السلام.. الإسلام الخالص الصريح ..

وصيـة يعقوب لبنيـه :

ولم يكتف إبراهيم بنفسه، إنما تركها فى عقبه، وجعلها وصيته فى ذريته، ووصى بها إبراهيم بنيه، كما وصى بها يعقوب بنيه، ويعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذى ينتسب إليه هؤلاء، ثم لا يلبون وصيته، ووصية جده وجدهم إبراهيم :

﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب** ﴾ .

ولقد ذكّر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم فى اختياره الدين لهـم:

﴿ **يـابنـى إن اللـه اصـطفـى لكـم الديـن** ﴾ .

فهو اختيار الله، فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه.. وأقل ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم ، هو الشكـر علـى نعمـة اختياره واصطفائه ، والحـرص علـى مـا اختاره لهـم والاجتهاد فى ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :

﴿ **فلا تمـوتـن إلا وأنـتـم مـسلمـون** ﴾ .

وهذه هى الفرصة سانحة،فقد جاءهم الرسول الذى يدعوهم إلى الإسلام، وهو ثمرة الدعوة التى دعاها أبوهم إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١) .

القرآن يسـأل بنى إسـرائيل:

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه، ووصية يعقوب لبنيه.. الوصية التى كررها يعقوب فى

---

(١) البقرة : ١٢٩ .

آخر لحظة من لحظات حياته، التى كانت شغله الشاغل، الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته، فليسمعها بنو إسرائيل:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوى الإيحاء، عميق التأثير.. ميت يحتضر. فما هى القضية التى تشغل باله فى ساعة الاحتضار؟

ما هو الشاغل الذى يعنى خاطره وهو فى سكرات الموت؟

ما هو الأمر الجلل الذى يريد أن يطمئن عليه، ويستوثق منه؟

ما هى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه. ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم فى محضر يسجل فيه كل التفصيلات؟

إنها العقيدة..

هى التركة..

وهى الذخر..

وهى القضية الكبرى..

وهى الشغل الشاغل..

وهى الأمر الجلل، الذى لا تشغل عنه سكرات الموت وصراعاته:

﴿ **ما تعبدون من بعدى؟** ﴾.

هذا هو الأمر الذى جمعتكم من أجله..

وهذه هى القضية التى أردت الاطمئنان عليها..

---

(١) البقرة: ١٣٣.

وهذه هى الأمانة، وهذا هو الذخر، وذلك هو التراث:

﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه..

إنهم يتسلمون التراث ويصونونه..

إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه..

وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية فى أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصون نصا صريحا على أنهم « مسلمون ».

والقرآن يسـأل بنى إسرائيل:

﴿ **أم كنتم شـهداء إذ حضر يعقوب الموت؟** ﴾ .

فهذا هو الذى كان يشهد به الله، ويقرره، ويقطع به كل حجة لهم فى التمويه والتضليل، ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل!

أمتـان مختلفتـان:

وفى ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التى خلت، والجيل الذى كانت تواجهه الدعوة.. حيث لا مجال لصلة، ولا مجال لوراثة، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

فلكل حساب، ولكل طريق، ولكل عنوان، ولكل صفة..

أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين!

إن هذه الأعقاب ليست امتداد لتلك الأسـلاف!

---

(1) البقـرة: ١٣٤.

هؤلاء حزب، وأولئك حزب.. لهؤلاء راية، ولأولئك رايـة..

والتصور الإيمانى فى هذا غير التصور الجاهلى.. فالتصور الجاهلى لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل؛ لأن الصلة هى صلة الجنس والنسب.. أما التصور الإيمانى فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق، فليسا أمة واحدة، وليس بينهما صلة ولا قرابة..

إنهما أمتـان مختلفتان فى ميزان الله، فهما مختلفتان فى ميزان المؤمنين..

إن الأمة فى التصور الإيمانى هى الجماعة التى تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض. وليست هى الجماعة التى تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحـدة..

وهذا هو التصور اللائق بالإنسان، الذى يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية، لا من التصاقات الطين الأرضية!

ليسـوا من بنى إسـرائيل:

وليس هؤلاء اليهود هم بنى إسرائيل قطعا، كما يقول العلامة الكبير السيد أمين مدنى، ويوافقه الأستاذ أحمد عطار، يقول[1]: «إن اليهودية دين لا جنس،وإن يهود اليوم لا ينتمون إلى بنى إسرائيل.. على أن كثرة من المؤرخين قديما وحديثا حاولوا أن يرجعوا اليهود إلى أرومة من أرومات الشرق العربى، فمثل ما يحاول المؤرخ اليهودى الحديث أن يربط نسب اليهود بنسب أسرة إسرائيل، ليكونوا شعب الله المختار، كذلك حاول المؤرخ اليهودى القديم أن يربط يهود مصر القدامى بعماليقها« الشاسو » ولكن هذه المحاولة على ما يظهر لم تأت بما يقنع المؤرخين القدامى، فهم لم يذكروا اليهود بعد زوال آل إسرائيل باسم بنى إسرائيل، فلقد تحدثوا عن يهود الحجاز قبل الإسلام، وعن يهود العراق وسورية ومصر قبل الإسلام وبعده، ولم يتحدثوا عن بنى إسرائيل فى الحجاز وغيره من أرض الجزيرة التى هاجر إليها اليهود ».

يقول الأستاذ أحمد عطار: ويهود اليوم ليسوا يهودا بغير الديانة التى ينتمون إليها،

---

(١) اليهودية والصهيونيـة : ١٨ وما بعدها، نقـلا عن : مجلة « كلمة الحق » العدد الأول، محرم ١٣٨٧ هـ إبريل١٩٦٧م.

فيهود كل بلد يختلفون عن يهود اليمن، فأولئك ألمانيون، وهؤلاء يمنيون، وهكذا القول فى كل أمة..

ولو كان يهود العالم من أصل واحد، لما ظهرت فوارق الخِلقة فيما بينهم، ولما ظهر بينهم ذوو البشرة البيضاء والعيون الزرق والشعر الأشقر أوالكستنائى.

ولسنا نحن الذين نقول هذا القول، بل يقوله عالم يهودى من أكبر العلماء فى الجنس وهو « فردريك هرتس » الذى يقول فى كتابه« الجنس والحضارة»:

« لم يعد بالإمكان أن يتمسك المرء بذلك الرأى الذى يمثل الآريين من جهة، واليهود من جهة أخرى، كجنسين مختلفين أشد الاختلاف، فقد أثبت البحث الأنثروبولوجى بصورة لا تحتمل الجدل ما بين الاثنين من القرابة الشديدة.

وقد استطاع اليهود فى أثناء تاريخهم الطويل أن يمتصوا مقدارا كبيرا من الدماء الأجنبية، وهذه الحقيقة تفسر ما نراه فيهم من اختلاف فى الصور والأشكال، ومشابهتهم للشعوب التى يعيشون بينها، وقد كان اعتناق الديانة اليهودية بوساطة اليونان والرومان والشعوب الأخرى أمرا كثير الحدوث ، وعلى الأخص فى القرن الأول والثانى قبل الميلاد، أما فى العصور الوسطى فعلى الرغم من جميع العقبات قد حدث مثل هذا التحويل إلى الديانة اليهودية، وعلى الأخص فى البلاد السلافية.

وهذا هو السبب فى أننا نرى اليهود الروس والبولونيين يشبهون السلاف لا شك فيه، واليهود الألمان أقرب شبها بسائر الألمان منهم بإخوانهم فى الدين من أهل فلسطين».

وفى كتاب « اليهود فى أمريكا » الذى أصدره اليهود أنفسهم صور ليهود، بينها صور أطفال من الذكور والإناث، كتب تحتها هذا التعريف:« فتيان وفتيات يهود من مختلف الأجناس والعروق فى ظل العلم الأمريكى « وهو اعتراف من اليهود أنفسهم بأنهم ينتمون إلى أجناس وعروق مختلفة، وهو ينفى نفيا قاطعا الانتماء إلى أصل واحد.

ويكاد الاتفاق يكون تاما بين علماء الأنثربولوجيا (علم السلالات البشرية أو الإنسان أو الأجناس)على أن اليهود ليسوا سلالة بنى إسرائيل القدماء، ويثبتون بما لا شك فيه أنهم من أجناس أخرى غير الجنس الإسرائيلى، اعتنقوا الديانة اليهودية خلال العصور الماضية فعرفوا باليهود، دون أن يكون للدم دخل فى تقرير يهوديتهم.

ومن أشهر علماء الأنثروبولوجيا الذين قرروا هذه الحقيقة اليهودى « فردريك هرتس» وهناك غيره من أكبر العلماء فى هذا الفن، أثبتوا هذه الحقيقة، التى أصبحت من البدهيات التى يحاول اليهود طمسها ليثبتوا دعاواهم الباطنة !

يقول العالم الأنثربولوجى « ربلى » فى كتابه« أجناس أوربا » وقد صدر قبل المشكلة الصهيونية:

« إن تسعة أعشار اليهود فى العالم يختلفون عن سلالة أجدادهم اختلافا واسعا ليس له نظير، وإن الزعم بأن اليهود جنس نقى حديث خرافة، ولقد أصاب « رينان » فى تأكيده بأن كلمة « يهودى » ليس لها معنى أنثربولوجى ، لا فى أوربا ولا فى حوض نهر الطونة على الأقل، وصدق الأستاذ « لمبروزو » فى ملاحظته بأن اليهود الحديثين هم أدنى إلى الجنس الآرى منهم إلى الجنس السامى».

ومن الثابت تاريخيا وواقعيا أن اليهود تشتتوا فى أقطار الأرض ومنهم من سكنوا أرض العرب والمسلمين التى تشكل بمساحتها وعدد سكانها أكبر أرض وأمة، وعاشوا بينهم فى أمن وسلام لم يجدوهما قط فى تاريخهم الطويل، بل لم يجدوهما فى دولة سليمان ، ولا فى ظل الدولة اليهودية!

يقول« برتراندرسل» أحد مشاهير العالم، وفيلسوف بريطانيا، فى كتابه« تاريخ الفلسفة الغربية » (١).

« كان المسلمون خلال العصور الوسطى أكثر مدنية وأرق قلبا من المسيحيين، فقد اضطهد المسيحيون اليهود، وبخاصة فى عهود الاضطراب الدينى ، وصاحبت الحروب مذابح مروعة، وذلك على نقيض ما كان اليهود فى البلاد الإسلامية، حيث لم يسيء أحد معاملة اليهود بأى معنى من معانى الإساءة»!

فاليهود عاشوا فى أمان فى دولة الإسلام فى جميع أقطارها، من الأندلس حتى ما وراء النهر، وفى كل البلدان العربية، ما عدا الحجاز ونجد وبعض أقطار الجزيرة العربية، فهم فى العراق وسورية ومصر وشمال أفريقية، واختلطوا بالسكان الأصليين، وامتزجوا بهم دما، كما اختلطوا دما بالقبائل التى تسمى القبائل البربرية وغيرها، ويسمى هؤلاء

---

(١) المرجع السابق: ٢٢ نقلا عن : تاريخ الفلسفة الغربية : ٢ : ١٨٦ ط العربية .

اليهود وهم «السفرديم» بلا خلاف مجموعة من دماء مختلفة، ومن عناصر متغايرة.

وهناك اليهود «الأشكينازيم» الألى كانوا ما قبل الميلاد بحوالى ثلاثة قرون فى حوض الراين الأعلى، وكان هؤلاء مجموعات كبيرة تفرعت منها مجموعات فى أقطار أوربا.

وإلى هؤلاء يعزى انتشار اليهودية فى أواسط أوربا، وبخاصة فى ألمانيا، وذلك قبل المسيحية ببضعة قرون،وهؤلاء ليسوا من السلالة الإسرائيلية القديمة.

وكتب العلامة «أوجين بتار» بحثا مطولا عن اليهود فى كتابه «الأجناس والتاريخ» وضمن بحثه العلمى ما انتهى إليه كثير من الباحثين الكبار ممن سبقوه، وكلهم أجمعوا على أن اليهود ليسوا من سلالة الإسرائيليين الأصليين، يقول:

«إن اليهود بعيدون عن الانتماء إلى الجنس اليهودى، وليس أصدق من حكم «رينان» الذى يقول: لا يوجد عنصر يهودى، وإنما توجد عناصر يهودية، ولا يمكننا اعتبار اليهود فى العصر الحاضر ممثلين لمجموعة جنسية متجانسة، حتى ولا اليهود القاطنين فى فلسطين؛ لأن الحركة الصهيونية جلبت إليها يهودا من مناطق مختلفة، واليهود ينتسبون ـ حقيقة ـ إلى تشكيلات دينية واجتماعية، تتداخل فيها أفراد تنتمى إلى عروق مختلفة فى كل الأزمان، واختلط هؤلاء المتهودون وشكلوا الجاليات اليهودية، فما العلاقة الجنسية بين يهود الحبشة واليهود الألمان من العنصر الجرمانى واليهود السود المسمين «بتاميل» فى الهند، أو اليهود الخزر الذين هم جد قريبين من العناصر التركية ؟

ومن المستحيل أن نعتبر اليهود الأوربيين الذين يسمون «أسبانيين» ذوى البشرة البيضاء والشعر الأشقر أو الكستنائى والعيون الفاتحة من سلالة الشعوب الإسرائيلية الأصيلة التى أقامت سابقا فى ضواحى نهر الأردن.

وإن مجموع الدراسات التى قام بها على اليهود أثبتت عدم تجانس هذه المجموعة الاجتماعية والدينية المعروفة باسم اليهود، وإن توزع اليهود الواسع فى أنحاء الكرة الأرضية يثبت لنا قابلية اليهود «للتأقلم» قابلية غير محدودة».

وقال: «إن يهود روسيا يختلفون ـ حسب إحصاءات وتجارب العالم «فايسبرغ» كل الاختلاف عن يهود ألمانيا».

« وإن كلا من طائفتى « السفارديم» و « الإشكينازيم » تدعى أنها هى التى تمثل العنصر اليهودى بصورة أوضح، ولكن الإسرائيليين غالبا يعتبرون أن الطقوس الدينية المأخوذة عن طائفة « السفارديم » هى الأصح، ولا يهمنا أن يكون اعتقادهم على صواب أو خطأ، بقدر ما يهمنا أن ندرس صفاتهم الجنسية ونرى فى يهود أوربا الشرقية: تركيا ، اليونان ، البوسنة، بلغاريا .. إلخ عدداً كبيرا من اليهود الذين يعرفون باسم الأسبانيين ، والذين يدعون أنهم حفدة اليهود المطرودين من أسبانيا أثناء الاضطهادات الدينية فى سنة ١٤٩٢ كما أنهم يلقبون أنفسهم بلقب« موريسكوس»[١]. ويربو عددهم على ٣٠٠ ألف فرد بقليل ».

ويستنتج « بتيار » من دراسة العلماء اليهود الأسبانيين ، واليهود الروس وغيرهم أن المجموعة الاجتماعية التى تسمى باسم اليهود هى مجموعة غير متجانسة بصورة خاصة، كما ظهر له أن يهود آسيا الوسطى (بخارى، سمرقند، مرو، هرات) يمثلون فئات غير متجانسة بصورة واضحة... ويعتقد يهود القوقاز أنهم يمثلون الطبقة الإسرائيلية الشرفية، كما يعتقد الاعتقاد نفسه اليهود الأسبانيون المقيمون فى جزيرة البلقان.

ويذكر « ديبوى » الذى زار هؤلاء اليهود الذين يدعون أنهم أشراف أنهم يحتقرون يهود الغرب الذين لا تربطهم بهم إلا روابط اجتماعية ضئيلة؛ لأنهم يدعون أنهم وحدهم أحفاد اليهود المنقولين بهم إلا روابط اجتماعية ضئيلة، لأنهم يدعون وحدهم أحفاد اليهود المنقولين من البلاد اليهودية فى فلسطين، منذ منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد على يد الآشوريين.

وينتقل « بتيار » إلى بحث يهود اليمن الذين هم من جماعة الإشكينازيم، ثم إلى يهود سوريا الذين أجريت التجارب عليهم فى دمشق وحلب، وهم يشكلون مجموعتين بعيدتين عن أن تكونا متشابهتين.

---

(١) يقول الأستاذ أنور الرفاعى فى موسوعته الفلسطينية المسماة « الأرض المقدسة » المجلد الأول، الجزء الثامن عشر : ٤١٥ » ونحن نرى أن هذا الاسم « موريسكوس » مشتق من الاسم الذى يطلق على سكان المغرب العربى بما يؤخذ دليلا آخر على تأثير اليهود بالصفات الجنسية التى عاشوا بها، ففيهم إذن دماء عربية وبربرية » يقول الأستاذ أحمد عطار : ولقد اعتمدنا على هذه الموسوعة فى الشواهد التى استشهدنا بها من كلام « بتار » و ربلى » و «هرتس» : اليهودية والصهيونية: ٢٤ هامش.

وينتهى « بتيار » من بحثه المستفيض إلى نتيجة هامة هى قوله: يظهر لنا أقل القراء معلومات يستطيع أن يستنتج من دراساتنا بأنه لا يوجد جنس يهودى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، واليهود يشكلون مجموعة دينية واجتماعية عريقة جدا بالطبع، لكن معالمها غير متجانسة بصورة واضحة.

ويمكننا أن نتساءل: كم تحتوى كل مجموعة من المجموعات اليهودية فى العالم من اليهود المثاليين الذين ينتمون إلى الإسرائيليين الذين كانوا يقيمون فى جوار البحر الميت، والذين يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار؟

وكذلك نلاحظ أن الإثباتات تفتقر أولئك الذين هم ضد الساميين، ويريدون أن يضعوا جنسا يهوديا مقابل الأجناس المسيحية، فلا يوجد جنس مسيحى، كما لا يوجد جنس إسلامى، ولا يوجد أبدا جنس يهودى » (١).

يقول الأستاذ أحمد عطار: وننتهى من كل ما سبق إلى أن اليهودية ليست جنسا ولا دما ولا عرقا، بل هى ديانة، ولو كانت جنسا لاقتضى الأمر أن يكون كل يهودى ككل يهودى فى الخلقة، أو على الأقل يكون التشابه عظيما، بحيث تتفق الأشكال والسمات الخلْقية.

والفرق كبير جد كبير بين يهود اليمن ويهود المغرب ويهود القوقاز ويهود روسيا ويهود ألمانيا ويهود كل بلد أو قطر فى الخلْقة، وهو أمر لا جدال فيه، ولا يمكن أن يكون أبناء هذه الشعوب منتمين إلى سلالة واحدة إلا كان سكان « الإسكيمو» و « الفرنسيون » من أصل واحد، وهذا لا يزعمه عاقل!

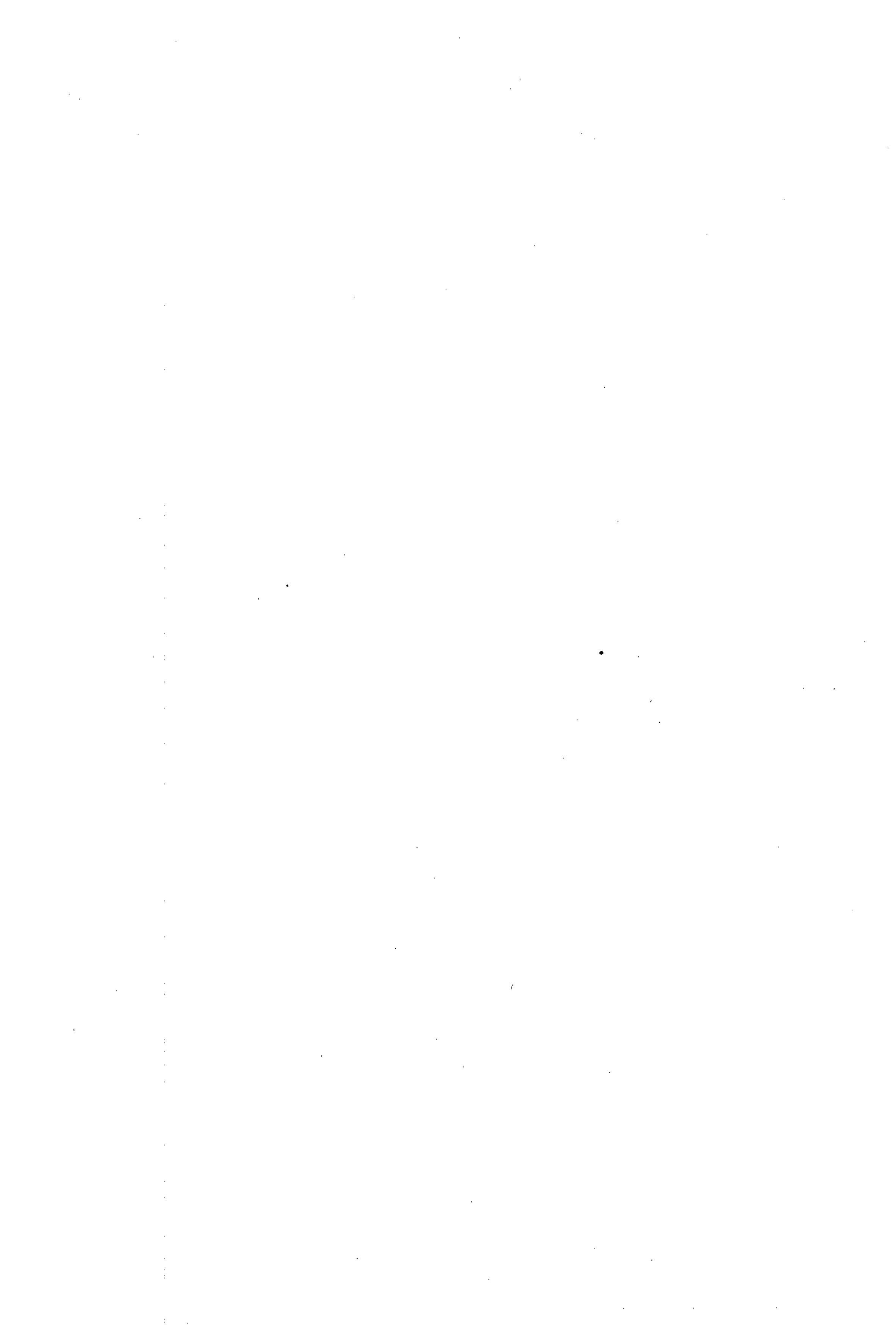
ومما لا جدال فيه ولا شك أن اليهود من مختلفى الأجناس يختلفون فى الدم، فيهود كل قطر ينتمون إليه.

وننتهى من هذا إلى زوال دم إسرائيل من الوجود زوالا تاما، وما حدث لليهود من تشريد وتشتيت خلال أربعة آلاف سنة تقريبا ـ أو أقل من هذا الزمن ببضعة قرون ــ محا

---

(١) ملخص من كتاب « بيتيار » باللغة الفرنسية : الأجناس والتاريخ : ٤١٣ وما بعدها: موسوعة الأرض المقدسة: أنور الرفاعى.

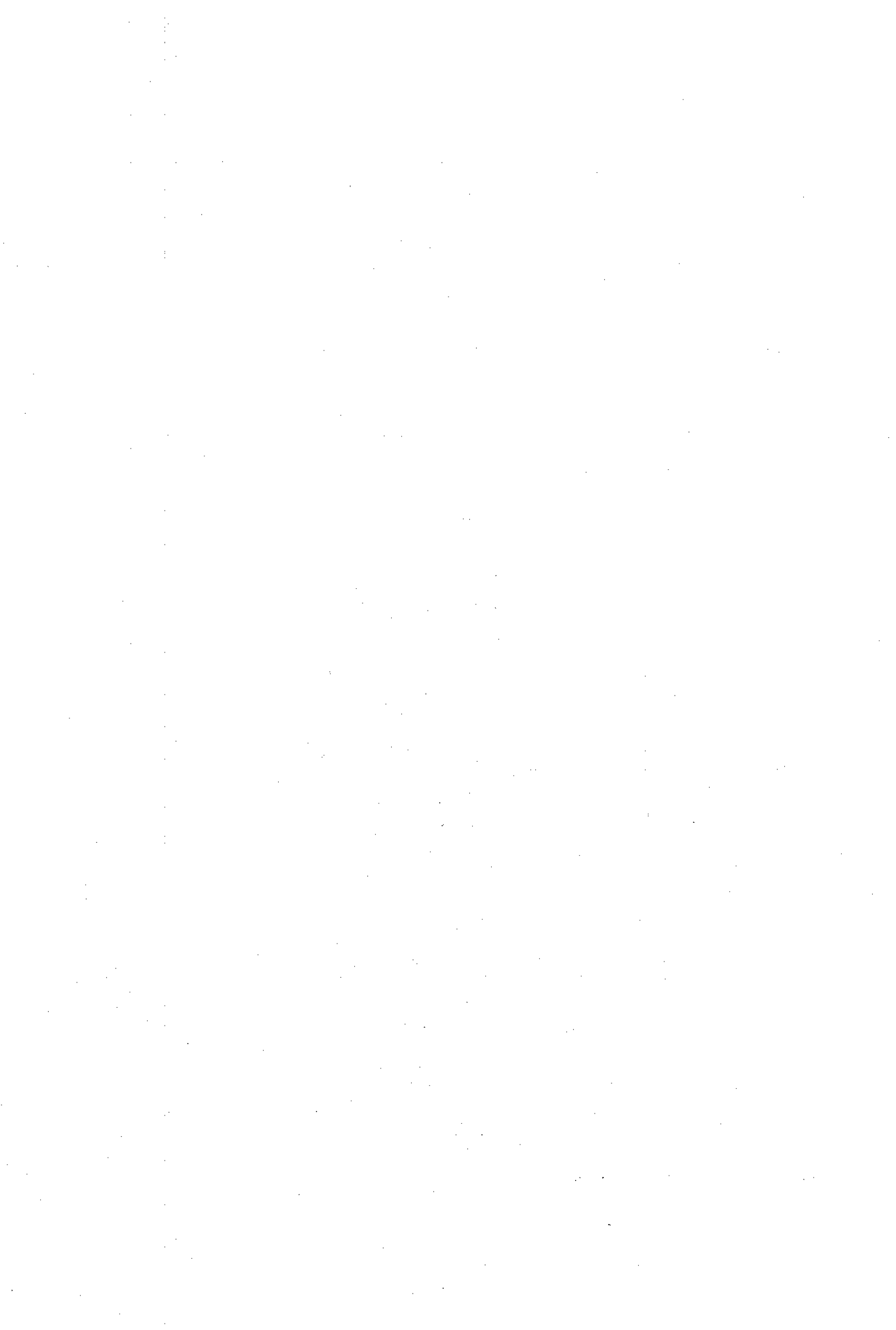
الدم الإسرائيلى محوا تاما، ومن اليقين الثابت أن اليهود منذ عشرات القرون ليسوا من سلالة الإسرائيليين الذين كانوا مع موسى، ثم مع داود وسليمان ، بل هم عناصر مختلفة ينتمون إلى دماء بعدد أجناس بنى البشر.



الفصل الثانى

بين مصر وفلسطين

الهجرة إلى مصر ـ موسى وبنو إسرائيل ـ الخروج من مصر ـ قبائح فى الطريق : القبيحة الأولى ـ القبيحة الثانية ـ القبيحة الثالثة ـ القبيحة الرابعة ـ دروس فى التربية .



الهجـرة إلـى مصـر :

يرى بعض المؤرخين أن يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ هاجر بأهله من فلسطين إلى مصر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد [١]، على أثر ما حاق بفلسطين من مجاعة، وما أصاب مراعيها من جدب وقحط وجفاف، وتفصيل ذلك أن أبناء يعقوب عليه السلام كانوا فى هذه الفترة يترددون على مصر لقصد التجارة، وطلب القوت، فتعرفوا على أخيهم يوسف عليه السلام، الذى كان فى ذلك الوقت أمينا على خزائن مصر، فأكرمهم وطلب منهم أن يحضروا جميعا ومعهم أبوهم يعقوب عليه السلام إلى أرض مصر، وكان عددهم ـ كما جاء فى سفر التكوين ـ ستا وستين نفسا سوى نسوة أولاده[٢].

وقد أكرم يوسف عليه السلام مثوى أبيه وإخوته، ورقق لهم قلب ملك مصر فى ذلك الوقت، وطلب بنو إسرائيل من ملك مصر أن يسكنهم فى أرض جاسان ـ يقال: إن مكانها الآن « بلدة صفط الحنة » بمحافظة الشرقية بمصر ـ فاستجاب لهم ، وقال ليوسف ـ كما جاء فى سفر التكوين ـ أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصر، ففى أفضل أرضها أسكن أباك وإخوتك، ليكونوا فى أرض جاسان .. فأسكنَ يوسفُ أباه وإخوته وأعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض، وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه.. [٣].

هذا ، وفى سورة يوسف[٤] تصوير رائع لما حصل بينه وبين إخوته من أحداث، وفيها كذلك إشارة إلى هجرة يعقوب ببنيه إلى مصر.. فقد تضمنت فى نصفها الأول ما جرى بين يوسف وإخوته، من حسدهم له على منزلته عند أبيهم يعقوب عليه السلام، ومن إلقائهم له فى الجب، ثم مجيئهم إلى أبيهم عشاء يبكون:

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [٥].

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم : ٤٠ بتصرف.
(٢) سفر التكوين : ٤٦.
(٣) سفر التكوير ٤٧.
(٤) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١: ١١ وما بعدها بتصرف.
(٥) يوسف : ١٧ ـ ١٨.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن إنقاذ إحدى القوافل التجارية ليوسف من الجب وبيعم إياه لعزيز مصر بثمن بخس: دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

ثم حكت السورة ما جرى ليوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، وكيف هددته بالسجن إذا لم يستجب لرغبتها، فقد حكى القرآن الكريم عنها أنها قالت:

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾ (١).

وهنا لجأ يوسف إلى ربه راجيا معونته:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٢).

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن دخول يوسف السجن، وعن تعليم الله إياه تعبير الرؤيا، وعن دعوته لصاحبى السجن إلى التوحيد الخالص، وعن تأويله لرؤيا الملك تأويلا صادقا ترتب عليه أن نجت مصر من مجاعة مهلكة، وأن استدعاه الملك وجعله على خزائن الأرض...

وقد ختمت هذه الأحداث التى حكتها الآيات ببيان سنة لا تتخلف من سنن الله، وهى أنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين، بل يمكن لهم فى الأرض، ويمنحهم الكثير من فضله ونعمه، قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (٣).

هذا بإيجاز عرض سريع لما تضمنته سورة يوسف فى نصفها الأول من أحداث وعبر وتوجيهات..

---

(١) يوسف: ٣٢. (٢) يوسف: ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) يوسف: ٥٦ ـ ٥٧.

أما نصفها الأخير فمعظمه يدورالحديث فيه حول قدوم إخوة يوسف إليه، وتعرفه عليهم، ومحاوراته معهم فى شأن شقيقه الذى لم يحضر معهم، ثم احتجازه عنده بعد أن أحضروه معهم بحجة أنه سارق.. ثم إخباره إياهم عن نفسه، ودعوته لهم أن يأتوه إلى مصر بأهلهم أجمعين، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١).

وبعد أن ذكرت الآيات ما دار بين يوسف وإخوته، وكيف أنه احتجز منهم أخاه وأبقاه عنده، بينت أن يعقوب عليه السلام أمر أولاده أن يذهبوا إلى أرض مصر ليعرفوا أخبار يوسف وأخيه، فقال تعالى حكاية عنه:

﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٢).

ثم بين القرآن الكريم ما جرى بين يوسف وإخوته فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٣).

ثم حكى القرآن الكريم ما دار بين يوسف وإخوته:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾

---

(١) يوسف: ٥٨ ـ ٦٢. (٢) يوسف: ٨٧. (٣) يوسف: ٨٨.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١).

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك ما دار بين يوسف وأبيه وإخوته بعد أن وفدوا عليه بمصر من فلسطين، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

وياله من مشهد! بعدكرّ الأعوام وانقضاء الأعوام(٣).. وبعد الألم والضيق.. وبعد الامتحان والابتلاء.. وبعد الشوق المضنى، والحزن الكامد، واللهف الظامىء الشديد.

يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع!

وياله من مشهد ختامى موصول بمطلع القصة: ذلك فى ضمير الغيب، وهذا فى واقع الحياة، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه.. وينزع نفسه من اللقاء والعناق، والفرحة والابتهاج، والجاه والسلطان، والرغد والأمان.. ليتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر! كل دعوته ـ وهو فى أبّهة السلطان، وفى فرحة تحقيق الأحلام ـ أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٤).

---

(١) يوسف: ٨٩ ـ ٩٣.

(٢) يوسف ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) فى ظلال القرآن: ٤ / ٢٠٢٩ بتصرف.

(٤) يوسف: ١٠١.

﴿ رب قد آتيتنى من الملك ﴾ .

آتيتنى منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله.. فذلك من نعمة الدنيا.

﴿ وعلمتنى من تأويل الأحاديث ﴾ .

بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها.. فذلك من نعمة العلم.

نعمتك يا ربِ أذكرها وأعدّدها:

﴿ فاطر السموات والأرض﴾ بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها، ولك القدرة عليها وعلى أهلها:

﴿ أنت وليّى فى الدنيا والآخرة ﴾ .

فأنت الناصر المعين..

رب تلك نعمتك.. وهذه قدرتك.. رب إنى لا أسألك سلطانا ولا دنيا..

رب إنى أسألك ما هو أبقى وأغنى:

﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾.

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء، وبهجة اجتماع الأهل،ولمة الإخوان..

إنه مشهد عبد يبتهل إلى ربه: أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه..

إنه النجاح المطلق فى الامتحان الأخير..

وعاش بنو إسرائيل بعد ذلك فى مصر آمنين، ودفعهم إلى المكث فيها ما اكتسبوه من خيرات، وما نالوه من أمن واستقرار بعد طول ترحال، ومجاعات حلت بهم قبل ذلك.

ويصف الدكتور أحمد بدوى علاقة المصريين ببنى إسرائيل فى تلك الفترة فيقول(١):

« من الثابت فى تاريخ مصر ـ بناء على ما جاء فى كتب السماء من ناحية، وما شهدت به

---

(١) فى موكب الشمس : ٢ : ٥٨٨ ـ ٥٨٩ بتصرف.

الآثار من ناحية أخرى ـ أن « العبرانيين » قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل، جاؤوها أول الأمر لاجئين، يطلبون الرزق فى أرضها، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم، والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام. ثم جاؤوها أسارى فى ركاب فرعون، كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافرا منصورا. فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء، ويعبدون أربابهم أحرارا، لم يكرههم أحد على قبول مذهب أو اعتناق دين، وتطيب لهم الإقامة فى مصر، وتستقيم لهم فيها أمور الحياة، ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر، ويعملون على إفقارهم، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هذا القطر، ليفرضوا عليه سلطانهم ، تارة عن طريق الضغط الاقتصادى، وآخر عن طريق الدين والعقيدة ».

هذا، وقد ذكر القرآن الكريم فى كثير من آياته نماذج من العذاب الذى أنزله فرعون وجنده، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١).

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

موسى وبنو إسرائيل:

كما ذكر فى آيات كثيرة أن موسى طلب من فرعون أن يقلع عن إيذاء بنى إسرائيل، وأن يترك الكفر والغرور ويعبد الله وحده لا شريك له، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣).

---

(١) القصص: آية ٤ . (٢) البقـرة: ٤٩. (٣) الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥.

وذكر أيضا أن الملأ من قوم فرعون طلبوا منه أن يزيد فى إيذاء بنى إسرائيل، وأن يحملهم على عبادة آلهتهم، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (١).

الخروج من مصر:

وردت قصة خروج بنى إسرائيل من مصر إلى أرض الشام فى آيات كثيرة.. منها قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (٢).

وفى سفر العدد:(٣) إن موسى أحصى بنى إسرائيل عند الخروج من مصر فوجد حملة السلاح منهم يبلغون(٦٠٣٥٠٠) نسمة ومعنى هذا أن تعدادهم العام كان يزيد على المليون.

ويعلق أحد المؤرخين على قصة استلاب بنى إسرائيل لحلى المصريين عند خروجهم من مصر فيقول: ويلفت النظر خاصة ما جاء فى التوراة من سلب رجال ونساء بنى إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب يدل على ما كان وظل يتحكم فى نفوس

---

(١) الأعراف: ١٢٧.　(٢) طه: ٧٧ ـ ٨٢.

(٣) سفر العدد: الإصحاح الأول.

بنى إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد ـ بدون ريب ـ فى رسوخ هذا الخلق العجيب فى ذراريهم، ثم مَنْ دخل فى دينهم من غير جنسهم»(١).

ويقول صاحب تاريخ الإسرائيليين : « وقد كان تاريخهم إلى وقت خروجهم من مصر، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة لا كيان لها ولا حكومة منها، ولا شارع أو وازع فيها ينظر فى أمورها، ويرد قويها عن ضعيفها، متفرقة فى أرض مصر، عرضة للعبودية والسخرة والاستعباد والإهانة، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعبا واحدا، وأمة واحدة، لها قائدها من بنيها، وجيش يقوم على حمايتها، وحاكم يتولى أمورها وشئونها، وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة، فإنها لم تكد تغادر مصر حتى بدأ الشارع فى سن النواميس والقوانين، والشرائع الدينية والأدبية والمدنية! كما تكون فى الأمة المستقلة القائمة بنفسها، وعليه فتاريخ الإسرائيليين لا يبتدئ إلا بعد خروجهم من مصر، وتاريخهم هذا يستغرق قرونا عديدة، اتفق لهم من خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط!»(٢).

قبائح فى الطريق :

ولم يقدر بنو إسرائيل النعم الكثيرة، التى تفوق الحصر والعد.. ومنها نعمة الحرية.. ولم يشكروا الله على إنجائه لهم من عدوهم (٣) ، ولم يطيعوا نبيهم موسى الذى جاء لهدايتهم وإصلاحهم والدفاع عنهم، بل آذوه إيذاء شديدا، وهذه بعض القبائح المتنوعة التى صدرت عنهم وهم فى طريقهم معه من مصر إلى أرض الشام :

القبيحة الأولى :

بعد أن سار بهم موسى عليه السلام فى أرض سيناء فترة من الوقت، جاعلا وجهته أرض فلسطين من بلاد الشام، ثاروا عليه وعلى أخيه هارون عليهما السلام، وقالوا لموسى وهارون كما تحكى التوراة عنهم:

« ليتنا متنا فى مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع، فإنكما

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم : ٤٣ . (٢) تاريخ الإسرائيليين : ١٥ ط المقتطفة ١٩٠٤م.

(٣) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١: ٢٦ وما بعدها بتصرف .

أخرجتمانا إلى هذا القفر، لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع.. لماذا أصعدتمانا من مصر؟ أمن أجل أن نموت نحن وأولادنا ومواشينا بالعطش..» (١).

وتحكى التوراة أن موسى عليه السلام ضاق بهم ذرعا ، لكثرة جهالاتهم، وسوء أعمالهم، وأنه تضرع إلى الله قائلا:

« رب! لم ابتليت عبدك، ووضعت أثقال هذا الشعب علىّ؟ وهل أنا الذى ولدتهم حتى تقول لى: احملهم فى حجرك كما تحمل الحاضن الرضيع، وإنى لست طائقا حمله وحدى؛ لأنه ثقيل علىّ، وإلا فاقتلنى ولا أرى بليتى ..»(٢).

القبيحة الثانية:

بعد أن رأى بنو إسرائيل غرق فرعون بأعينهم، وساروا مع موسى عليه السلام إلى بلاد الشام، شاهدوا قوما يعبدون أصناما لهم ، فما لبث بنو إسرائيل بعد مشاهدتهم لهؤلاء الوثنيين إلا أن قالوا لنبيهم موسى: اجعل لنا إلها، كما أن لهؤلاء أصناما، وذلك لأن الوثنية التى عاشوا فيها عالقة بنفوسهم الضعيفة ، وقد ذكر القرآن هذه الرذيلة منهم ، فقال تعالى :

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٣).

إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام(٤)! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية. وطبيعة بنى إسرائيل ـ كما عرضها القرآن الكريم عرضا صادقا دقيقا أمينا فى شتى المناسبات ـ طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد

---

(١) سفر الخروج : ١٦.
(٢) سفر الخروج: ١١.
(٣) الأعراف : ١٣٨ ـ ١٤١.
(٤) فى ظلال القرآن : ٣:١٣٦٦ بتصرف.

تهتدى حتى تضل وتنحرف وما تكاد ترتفع حتى تنحط وتنجرف، وما تكاد تمضى فى الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس.. ذلك إلى غلط فى الكبد، وتصلب عن الحق، وقساوة فى الحس والشعور!

وهاهم أولاء على طبيعتهم تلك!

هاهم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى يَنْسَوا تعليم أكثر من عشرين عاما منذ أن جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد ـ كما تقول بعض الروايات ـ بل حتى يَنْسَوْا معجزة اللحظة التى انقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين!

وهؤلاء كانوا وثنيين، وباسم هذه الوثنية استذلوهم ـ كما سبق ـ حتى إن الملأ من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم:

﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾

ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم: رسول العالمين ان يتخذ لهم بنفسه إلها كما أن لهؤلاء آلهة!

إنما هم بنو إسرائيل!

ويغضب موسى عليه السلام .. يغضب موسى غضبة رسول رب العالمين ، لرب العالمين، ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه! فيقول قولته التى تليق بهذا الطلب العجيب:

﴿ **قال: إنكم قوم تجهلون** ﴾ .

ولم يقل تجهلون ماذا؟ ليكون فى إطلاق اللفظ ما يعنى الجهل الكامل الشامل!

الجهل من الجهالة التى هى ضد المعرفة!

والجهل من الحماقة التى هى ضد العقل!

فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد حدود الجهالة والحمق!

ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة، وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد، وأنه ما من علم ولاعقل يقود إلى غيرهذا الطريق..

إن العلم والعقل يواجهان هذا الكون بنواميسه التى تشهد بوجود الخالق المدبر، وبوحدانية هذا الخالق المدبر. فعنصر التقدير والتدبير بارز فى هذه النواميس، وطابع الوحدة ظاهر كذلك فيها وفى آثارها التى يكشفها النظر والتدبر ـ وفق المنهج الصحيح ـ وما يغفل عن ذلك كله، أو يعرض عن ذلك كله، إلا الحمقى والجهال. ولو ادعوا « العلم » كما يدعيه الكثيرون!

ويمضى موسى عليه السلام يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون، بالكشف عن سوء عقبى القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم، فأرادوا أن يقلدوهم:

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

إن ما هم فيه من شرك، وعكوف على الآلهة، وحياة تقوم على هذا الشرك، وتعدد فيها الأرباب، ومن يقوم وراء الأرباب من السدنة والكهنة، ومن حكام يستمدون سلطانهم من هذا الخليط.. إلى آخر ما يتبع الانحراف عن الألوهية الواحدة من فساد فى التطورات وفساد فى الحياة!

إن هذا كله هالك باطل. ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار والبوار فى نهاية المطاف!

ثم ترتفع نغمة الغيرة فى كلمات موسى عليه السلام على ربه، والغضب له سبحانه، والتعجب من نسيان قومه لنعم الله عليهم وهى حاضرة ظاهرة:

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

القبيحة الثالثة:

وخلال سير موسى بقومه فى صحراء سيناء إلى بلاد الشام كان مشهد تهيؤ موسى عليه السلام لهذا الموقف العظيم:

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١).

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

وموسى يعلم أن هارون نبى مرسل من ربه معه.. ولكن المسلم للمسلم ناصح.. والنصيحة حق وواجب على المسلم.. ثم إن موسى يقدر ثقل التبعة، وهو يعرف طبيعة قومه بنى إسرائيل!

وقد تلقى هارون النصيحة. لم تثقل على نفسه! فالنصيحة إنما تثقل على نفوس الأشرار؛ لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه، وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار، الذين يحسون فى النصيحة تنقصا لأقدارهم!

ثم يأتى مشهد ارتكاس بنى إسرائيل وانتكاسهم، وهم يتخذون لهم عجلا جسدا له خوار ـ لا حياة فيه ـ يعبدونه من دون الله:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾(١).

إنها طبيعة بنى إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق، والتى ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية فى التصور والاعتقاد، والتى يسهل انتكاسها وارتكاسها!

لقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلها يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم! فصدهم موسى عن ذلك الخاطر ـ كما أسلفنا ـ وردهم ردا شديدا. فلما خَلَوْا إلى أنفسهم، ورأوا عجلا جسدا من الذهب ـ لا حياة فيه ـ صنعه لهم السامرى طاروا إليه، وتهافتوا عليه:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ۝ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۝ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩

---

(١) الأعراف: ١٤٨.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [(1)].

لقد رجع موسى عليه السلام [(2)] ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار! وراح يسألهم فى حزن وغضب:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾

وقد وعدهم الله بدخول الأرض المقدسة فى ظل التوحيد، ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت، ويؤنبهم فى استنكار:

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله، كأنما يتعمد ذلك تعمدا، ويقصد إليه قصدا! أفطال عليكم ذلك العهد؟ أم تعمدتم حلول الغضب؟

﴿**فأخلفتم موعدى**﴾ .

وقد تواعدنا على أن تبقوا على هدى حتى أعود إليكم، لا تغيرون فى عقيدتكم ولا فى منهجكم بغير أمرى ؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب، الذى يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسى، والسُّخْف العقلى:

---

(1) طـه: ٨٦ ـ ٩٨ .   (2) المرجع السابق : ٤ : ٢٣٤٧ بتصرف.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾

فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا!

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾

وقد حملوا معهم ـ كما أسلفنا ـ أكداسا من حلى المصريات! فهم يشيرون إلى هذه الأحمال. فأخذها السامرى فصاغ منها عجلا جعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح، فهو جسد، وما كادوا يرونه هكذا حتى نَسُوا ربهم الذى أنقذهم من أرض الذل، وعكفوا على عجل الذهب، وفى بلاهة فكر وبلادة روح قالوا:

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾

راح يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا، وقد نسى موسى الطريق إلى ربه وضل عنه!

وهى قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذى أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده.. اتهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدى ولا ربه يهديه!

ذلك فضلا عن وضوح الخدعة:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

والمقصود أنه حتى لم يكن عجلا حيا يسمع قولهم ويستجيب له، على عادة العجول البقرية! فهو فى درجة أقل من الحيوانية! وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرا ولا نفعا فى أبسط صورة! فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية!

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون، وهو نبيهم كذلك، والنائب عن نبيهم المنقذ. ونبههم إلى أن هذا ابتلاء. قال:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع

ربه.. ولكنهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته، وقالوا:

﴿ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴾

ورجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، فسمع منهم حجتهم التى تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل، وأصاب تفكيرهم من فساد.. فالتفت إلى أخيه وهو فى فورة الغضب، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة:

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴾

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل، دون أن يبطل عبادته، اتباعا لأمر موسى عليه السلام بألا يحدث أمرا بعده، لا يسمح بإحداث أمر. ويستنكر عليه عدم تنفيذ، فهل كان ذلك عصيانا لأمره؟

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون. فهو يطلع أخاه عليه، محاولا أن يهدئ من غضبه باستجاشة عاطفة الرحم فى نفسه:

﴿ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴾

وهكذا نجد هارون يلمس فى المشاعر نقطة حساسة.. ويجيء من ناحية الرحم، وهى أشد حساسية، ويعرض وجهة نظره فى صورة الطاعة لأمره حسب تقديره، وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعا، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون. وقد أمره أن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا. فهى كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى.

عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامرى صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء؛ لأن القوم هم المسئولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسئول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك، وهو قائدهم المؤتمن عليهم. فأما السامرى فذنبه يجيء متأخرا؛ لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول، ونصح نبيهم الثانى. فالتبعة عليهم أولا، وعلى

راعيهم بعد ذلك، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا.

واتجه موسى إلى السامرى:

﴿ قال فما خطبك يا سامرى؟ قال: بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى. قال: فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا. إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ﴾.

القبيحة الرابعة:

بعد كل هذه الأحداث والإساءات من بنى إسرائيل[1]، واصل بهم موسى عليه السلام سيره إلى أرض الشام، وقبل أن يصل بهم إلى الأرض المقدسة التى كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، أمرهم أن يُعِدُّوا أنفسهم لدخولها، وأن يُوَطِّنوها على القتال، واختار منهم اثنى عشر نقيبا.. ولكنهم جبنوا كما هو شأنهم، ومزقهم الجبن شر ممزق، حتى قالوا ما قالوا فى وقاحة! وهناك رجلان من الذين يخافون سجل القرآن موقفهما، فكانت النتيجة لجبنهم وعصيانهم ووقاحتهم أن ابتلاهم الله بالتيه أربعين سنة، وقد سجل القرآن الكريم هذه القصة، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١ ـ ٣١ بتصرف.

﴿وَأَخِي فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (١).

ونلمح فى كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب(٢). فلقد جربهم من قبل فى «مواطن كثيرة» فى خط سير الرحلة الطويل.. جربهم وقد أخرجهم من مصر، وحررهم من الذل والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذى فرَق لهم البحر، وأغرق فرعون وجنده..

وقد سبق ذكر بعض القبائح التى حدثت منهم قبل ذلك.. ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة.. أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا.. الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكا، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها، ليظلوا فى رعاية الله..

لقد جربهم فحق له أن يشفق، وهو يدعوهم دعوته تلك، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البشريات، وأضخم المشجعات، وأشد التحذيرات:

﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ .

نعمة الله.. ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء، ويجعلهم ملوكا.. وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحدا من العالمين، حتى ذلك التاريخ.. والأرض المقدسة التى هم مقدمون مقدمون عليها مكتوبه لهم بوعد الله..فهى إذن يقين.. وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده.. وهذا وعده الذى هم عليه قادمون.. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين .

ولكن اليهود هم اليهود! الجبن والتمحل والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق!

---

(١) المائدة: ٢٠ ـ ٢٦.

(٢) فى ظلال القرآن: ٢: ٨٦٩ بتصرف.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾

إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل! ذلك أنهم أمام الخطر، فلا بقية إذن من تجمل، ولا محاولة إذن للتشجع، ولا مجال كذلك للتمحل! إن الخطر ماثل قريب، ومن ثم لا يعصمهم منه ولا هذا الوعد بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن الله كتبها لهم، فهم يريدونه نصرا رخيصا، لا ثمن له، ولا جهد فيه.. يريدونه نصرا مريحا يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى!

ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود! وهى فارغة القلوب من الإيمان!

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله، والخوف منه.. فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة الجبارين، ويمنحهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة، وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس. فالله سبحانه لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين: مخافته جل جلاله، ومخافته الناس.. والذى يخاف الله لا يخاف أحدا بعده، ولا يخاف شيئا سواه..

﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ .

قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب.. أقدموا واقتحموا. فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم، وأحسوا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم:

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

فعلى الله وحده يتوكل المؤمن.. وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه.. ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبنى إسرائيل؟!

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

وهكذا يحرج الجبناء فيتوقحون، ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمُر ولا يُقْدِمون! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين، بل إنهما لصنوان فى كثير من الأحيان.. يُدفع الجبان إلى الواجب فيَجبن. فيُحرج بأنه ناكل عن الواجب، فيسب هذا الواجب، ويتوقح على دعوته التى تكلفه ما لا يريد!

﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾!

هكذا فى وقاحة العاجز، الذى لا تكلفه وقاحة اللسان إلا أن يمد اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان!

فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال!

إنهم لا يريدون مُلكا،ولا يريدون عزا، ولا يريدون أرض الميعاد.. ودونها لقاء الجبارين!

هذه هى نهاية المطاف بموسى عليه السلام.. نهاية الجهد الجهيد، والسفر الطويل، واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل!

نعم، ها هى ذى نهاية المطاف.. النكوص عن الأرض المقدسة، وهو معهم على أبوابها.. والنكول عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق.. فماذا يصنع؟ وبمن يستجير؟

﴿ قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ .

دعوة فيها الألم، وفيها الالتجاء، وفيها الاستسلام، وفيها بعد ذلك المفاصلة والحسم والتصميم!

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه.. ولكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول، وفى إيمان النبى الكليم، وفى عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجها إلا لله، يشكو له بثه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين. فما يربطه بهم شىء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق..

ما يربطه بهم نسب..

وما يربطه بهم تاريخ..

وما يربطه بهم جهد سابق..

إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله..

وقد كان هذا موقفهم، فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق..

وما عاد يربطه بهم رباط!

إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون!

إنه مستمسك بميثاق اللّه، وهم ناكصون!

هذا هو أدب النبى.. وهذه هى خطة المؤمن.. وهذه هى الآصرة التى يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون.. لا جنس.. لا نسب.. لا قوم..لا لغة.. لا تاريخ.. لا وشيجة من وشائج الأرض، إذا انقطعت وشيجة العقيدة، وإذا اختلف المنهج والطريق..

واستجاب الله لنبيه. وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين:

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

دروس فى التربية:

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس ـ مما قصه القرآن الكريم عليهم من القصص ـ فحين واجهوا الشدة، وهم قلة أمام نفير قريش، قالوا فيما يرويه البخارى عن طارق بن شهاب، قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحِبَهُ أحبُّ إلىَّ مما عُدِل به: أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال موسى: « اذهب أنت وربك فقاتلا » ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهُه وسرَّه، يعنى قوله(١).

وكانت هذه بعض آثارالمنهج القرآنى فى التربية بالقصص عامة، وبعض جوانب حكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل الذين هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب فى المدينة وفى الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حربا على

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٣٩٥٢) ، ورواه أحمد : ٥: ٢٥٩ (٣٦٩٨) تحقيق أحمد شاكر.

الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول!

وهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين فى المدينة، وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا!

وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة!

وهم الذين تولَّوا حرب الإشاعات والدس والكيد فى الصف المسلم، كما تولَّوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة!

وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم فى الحرب المعلنة الصريحة. فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها. ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما حقيقة المعركة التى تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة فى تاريخها كله، كما كانوا أعداء هدى الله فى ماضيهم كله. فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفا، ووسائلهم كلها مكشوفة!

ومن جوانب هذه الحكمة أن بنى إسرائيل هم أصحاب آخر رسالة قبل الرسالة الأخيرة. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة، ووقعت الانحرافات فى عقيدتهم ـ كما سبق وكما سيأتى ـ ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم، ووقعت فى حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف.. وفى أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة ـ وهى وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها ـ بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ، وتعرف مزالق الطريق، وعواقبها ممثلة فى حياة بنى إسرائيل وأخلاقهم .. لتضم هذه التجربة فى حقل العقيدة والحياة إلى حصيلة تجاربها، وتنتفع بهذا الرصيد على مدار القرون. ولتتقى بصفة خاصة مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة: أن تجربة بنى إسرائيل ذات صحائف شتى فى المدى الطويل.. وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيالها منها، وأن الأمة المسلمة التى سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بنى إسرائيل، فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددى الدعوة فى أجيالها

الكثيرة، نماذج من العقابيل التى تلم بالأمم، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته.. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هى القلوب التى عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الغفل أقرب إلى الاستجابة؛ لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها، وينفض عنها الركام، لجدته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذى يطرق فطرتها لأول مرة. فأما القلوب التى نوديت من قبل، فالنداء الثانى لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته، ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل!

وجوانب شتى لحكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل، وعرضها مفصلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين، القوَّامة على البشر أجمعين.. نعرض لها فى حينها بعون الله وتوفيقه..

الفصل الثالث

فى الأرض المقدسة

قتل وإبادة ـ عهد القضاة ـ من أسوأ عهودهم ـ من أخلاق يهود ـ عهد الملوك ـ طالوت ـ إنهم يهود ـ قصة التابوت ـ قيادة وجنود ـ معالم فى الطريق ـ عهد الانقسام وزوال ملك بنى إسرائيل ـ اليهود بعد سقوط إسرائيل ويهوذا.



قتــل وإبــادة:

وبعد وفاة موسى عليه الســلام، عبر « يوشع » ببنى إسـرائيل ـ كما تحكى التوراة ـ نهر الأردن إلى الأرض المقدسة، وأول مدينة استطاع « يوشع» ومن معه أن يدخلوها هى مدينة « أريحا »، ثم زحف إلى مدينة «العى» التى هى بين « نابلس » و«القدس» من ناحية الشرق، وأن بنى إسرائيل بعد أن دخلوا هاتين المدينتين قتلوا معظم سكانها، ثم صلبوا ملك« العى » على باب المدينة!

ثم حكت التوراة بعد ذلك قصة انتصار« يوشع » ومن معه من بنى إسـرائيل على الكنعانيين ـ الذين كانوا يسكنون فلسطين فى ذلك الوقت ـ وكيف أن بنى إسـرائيل كانوا يقتلون رجال ونساء وأطفال المدينة التى تقع فى أيديهم بأمر الرب!

ففى الإصحاح العاشر من سفر« يشوع » هذه العبارة : «إن « يشوع» ضرب جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها وأبسل ـ أهلك ـ كل نسمة كما أمر الرب، ولم يبق باقية منهم، فضربهم من« قادش » إلى «غزة» وانتصر عليهم؛ لأن الرب كان يحارب مع إسـرائيل ».

ويصف صاحب« قصة الحضارة » ما فعله بنو إسرائيل بالكنعانيين فيقول:

« كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلاواضحا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقى من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهارا، وكان هذا القتال ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس ـ فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى، وزكاة للرب، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثنى عشر ألفا، وأحرقوها وصلبوا حاكمها، ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسـراف فى القتل والاستمتاع به.. وقد أقام« يوشع » حكمه على قانون الطبيعة الذى يقول« إن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا » وبهذه الطريقة التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة»(١).

وقد قسم « يوشع » الأرض التى استولى عليها من الكنعانيين بين الأسباط، واحتوت الإصحاحات من الثالث عشر إلى التاسع عشر من سفر « يوشع » أسماء المدن والحدود

---

(١) قصة الحضارة: ٢ : ٣٢٦ لديورانت .

التى كانت من نصيب كل سبط، على أن الإصحاحات تفيد أن مناطقا ومدنا قد بقيت فى حوزة سكانها، ولم يستول عليها بنو إسرائيل إلا بعد موت «يوشع»، بل ومنها من لم يستول عليه بنو إسرائيل، ولم يصبح موطنا لهم قط، كالجزء الجنوبى من فلسطين.

وقد جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر « يوشع » أنه مات بعد أن بلغ من العمر مائة وعشرين سنة، ودفن فى أرض ميراثه فى جبل « إفرائيم» قرب نابلس اليوم(١).

ويصف الدكتور على عبد الواحد وافى كيفية دخول بنى إسرائيل فلسطين بقيادة «يوشع» وكيفية حياتهم فيها فيقول:

وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة « يوشع » خليفة موسى عليه السلام بعد وفاته، على بلاد كنعان ـ فلسطين، وما إليها، وهى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها ـ واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات، بعد أن أبادوا معظم أهلها، واستعبدوا من أبقوا عليه منهم، فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل، وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التى ورثوها عن الكنعانيين، وأخذت مزاولتهم لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانيّيهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب، وهم رهط موسى وهارون(٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة ـ كما يقول ابن كثير ـ (٣) فى تفسير قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (٤).

يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم: ٧٧ بتصرف.

(٢) الأسفار المقدسة: ٨ط نهضة مصر.

(٣) تفسير ابن كثير: ١ : ٩٨ بتصرف.

(٤) البقرة: ٥٨ ـ ٥٩.

بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة، التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فَنَكَلُوا عن قتالهم، وضعُفوا واستحسروا، فرماهم الله فى التّيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى فى سورة المائدة ـ التى عرضنا لها من قبل ـ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس، كما نص على ذلك السدى والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهانى وغير واحد، وقد قال الله تعالى حاكيا عن موسى:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ ﴾ ... الآيات.

وقال آخرون: هى أريحاء، ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، حكاه الرازى فى تفسيره، والصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع « يوشع » بن نون، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب سجدا، شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وإنقاذهم من التيه والضلال..

والسياق القرآنى يواجههم[1] بهذا الحادث فى تاريخهم، وقد كان مما وقع بعد الفترة التى يدور عنها الحديث هنا ـ وهى عهد موسى ـ ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة، قديمه كحديثه، ووسطه كطرفيه.. كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف!

وأيا كان هذا الحادث، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه، ويذكرهم بحادث يعلمونه.. فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة، وأمرهم أن يدخلوها فى هيئة خشوع وخضوع، وأن يدعوا الله ليغفر لهم ويحط عنهم، ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته. فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود!

﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ﴾.

ويخص الذين ظلموا بالذكر. إما لأنهم كانوا فريقا منهم، وإما لتقرير الظلم لهم جميعا.

---

(١) فى ظلال القرآن: ١ / ٧٣ بتصرف.

﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

والرجز: العذاب. والفسوق: المخالفة والخروج.. وكانت هذه واحدة من أفاعيل بنى إسرائيل !

عهد القضاة:

وأعقب موت « يوشع »عهد عرف باسم « عهد القضاة » يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: « كانت البلاد فى « عهد القضاة » أشبه شيء بولايات متحدة، فى كل ولاية سبط من الأسباط الاثنى عشر، يحكمه كبار العشائر، وهذه الأسباط جميعا مرتبطة برباط واحد.. وكانوا يشتركون فى الحفلات الدينية الكبرى، على أنهم كثيرا ما ارتدوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام، وفى التوراة« إن ذلك كان سببا فى تسلط الأجانب عليهم، فكان لهم من قضاتهم هؤلاء قواد يَلُمُّون شَعَثَهُم، ويجمعون شملهم، ولم يكن لهؤلاء القضاة شيء من امتيازات الملوك ولا أُبَّهتهم.. ومن القضاة من انحصر عمله فى رد غارة أو دفع عدو، ومنهم من تولى الحكم طول حياته لحكمته وخبرته.. (١).

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة: « وحساب سفر القضاة يجعل حقبة القضاء نحو أربعمائة سنة، مع أنها قد لا تزيد عن المائة، إذا ما لاحظنا أن المُلك الرسمى لبنى إسرائيل قام فى أواسط القرن الحادى عشر ــ حوالى سنة ١٠٣٠ ق م ــ وأن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى أواخر القرن الثالث عشر ــ حوالى ٣٢١٠ ق م ــ وأن زعامة موسى ويشوع من بعده استمرت نحو ثمانين سنة، وهذا الرقم ــ وهو الأربعمائة ــ من مبالغات سفر القضاة، شأنه شأن الأسفار الأخرى فى الأرقام» (٢).

من أسوأ عهودهم:

والذى يقرأ سفر القضاة يستخلص منه أن عهد القضاة من أسوأ عهود بنى إسرائيل، ففى «الإصحاح الثانى» من هذا السفر عرض إجمالى لسيرتهم فى هذا العهد حيث يقول: « ونشأ بعدهم ــ أى من بعد يوشع وأتباعه ــ جيل آخرلا يعرف الرب، ولا ماصنع لإسرائيل، ففعل بنو إسرائيل الشر فى أعين الرب، وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من مصر، وتبعوا آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها

(١) تاريخ الإسرائيليين : ١٩ بتصرف.

(٢) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم: ٨٢.

وأسخطوا الرب.. فغضب الرب على إسرائيل، فدفعهم إلى أيدى المنتهبين فانتهبوهم، وباعهم إلى أيدى، أعدائهم الذين حولهم، ولم يقدروا بعد أن يثبتوا فى وجوه أعدائهم. فكانوا حيثما خرجوا تكون يد الرب عليهم للشر، كما قال الرب، وكما أقسم، فضاق بهم الأمر جدا.. »(١).

من أخلاق يهود:

وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (٢).

ومعنى الآية ــ كما جاء فى المنار ــ أى خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح، والبر والفاجر، خلْف سوء وبدل شر، قيل: إن الخلْف ــ بسكون اللام ــ يغلب فى الأشرار، وإنما يقال فى الأخبار خلَف ــ بالتحريك ــ كسلف « ورثوا الكتاب »الذى هو التوراة عنهم، وقامت الحجة به عليهم (٣).

وصفة هذا الخلْف الذى جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى(٤) : أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه.. ولكنهم لم يتكيفوا به، ولم تتأثر به قلوبهم، ولم ينتفعوا به فى سلوكهم.. شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس، وعلم يحفظ.. وكلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأولوا وقالوا: « سيغفر لنا » وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!

ويسأل سؤال استنكار:

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾

(١) سفر القضاة: ٢ .
(٢) الأعراف: ١٦٩.
(٣) تفسير المنار: ٩ : ٣٨٢.
(٤) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٣٨٧ بتصرف .

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله فى الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق؟ فما بالهم يقولون: « سيغفر لنا» ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقا، ويقلعون عن المعصية فعلا، وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه!

بلى! ولكن الدراسة لا تجدى ما لم تخالط القلوب.. وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد! إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التى تنيلهم عرض الحياة الدنيا!

وهل آفة أشد من آفة الذين يدرسون الدين دراسة، ولا يأخذونه عقيدة، ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟﴾ .

نعم! إنها الدارالآخرة! إن وزنها فى قلوب الذين يتقون هو وحده الذى يرجح الكفة، وهو وحده الذى يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب فى هذه الدنيا..

نعم! إنها هى التى لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها ..

وإلا فما الذى يعدل فى النفس البشرية الرغبة الملحة فى حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟!

وما الذى يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغى؟

وما الذى يهدىء فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟

وما الذى يطمئنها فى صراع الحياة الدنيا على النصيب الذى لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟

وما الذى يثبتها فى المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفِرّ من بين يديها وتنأى! والشر يتبجح والباطل يطغى؟!

لا شيء يثبت على الغِيَر والأحداث وتقلبات الأحوال فى هذا الخضم الهائج، وفى هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين فى الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفُون، ويترفّعون، ويثبّتون على الحق والخير فى وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون فى الطريق لا يلتفتون.. مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين..

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذى يريد دعاة الإلحاد أن يُلْغُوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا، ويُحِلّوا محله تصورا كافرا جاهلا مطموسا!

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة، وتفسد النفوس، وينطلق السعار المجنون الذى لا يكبحه إلا ذلك اليقين.. ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع.. وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة فى كل مجال.. وتلك أخلاق يهود!.

إن ما يناقض « الغيبية » جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر!

جهالة يرجع عنها« العلم البشرى » ذاته، ولا يبقى يرددها فى القرن العشرين إلا الجهال!

جهالة تناقض فطرة« الإنسان » ومن ثم تفسد« الحياة » ذلك الإفساد الذى يهدد البشرية بالدمار!

ولكنه المخطط الصهيونى الرهيب الرعيب، الذى يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها، ليسهل تطويعها لضلالات صهيون فى نهاية المطاف! والذى تردده الببغاوات هنا وهناك، بينما الأوضاع التى أقامتها الصهيونية وكفلتها فى أنحاء الأرض تمضى عن علم فى تنفيذ المخطط الرهيب الرعيب هنا وهناك!

ولأن قضية الآخرة وقضية التقوى قضيتان أساسيتان فى العقيدة وفى الحياة، يحيل السياق القرآنى المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى.. عرض الحياة الدنيا.. إلى العقل:

﴿ **والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟** ﴾ .

ولو كان العقل هو الذى يحكم لا الهوى .. ولو كان العلم الحق هو الذى يقضى لا الجهالة التى تسمى العلم.. لكانت الدار الآخرة خيرا من عرض هذا الأدنى.. ولكانت التقوى زادا للدين والدنيا جميعا:

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [1].

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه، ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذى درسوه، ولا يعلمون به، ولا يُحَكِّمونه فى تصوراتهم وحركاتهم، ولا فى سلوكهم وحياتهم.. غير أن الآية تبقى - من وراء ذلك التعريض - مطلقة، تعطى مدلولها كاملا، لكل جيل، ولكل قبيل، ولكل حالة..

إن الصيغة اللفظية: «يمسّكون» تصور مدلولا يكاد يُحَسُّ ويُرى.. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة.. إنها الصورة التى يحب الله أن يؤخذ بها كتابه.. فى غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت.. فالجد والقوة والصرامة شيء، والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر.. إن الجد والقوة والصرامة لا تنافى اليسر، ولكنها تنافى التميّع! ولا تنافى سعة الأفق، ولكنها تنافى الاستهتار!

والتمسك بالكتاب فى جد وقوة وصرامة.. وإقامة الصلاة.. هما طرفا المنهج الربانى لصلاح الحياة.. والتمسك بالكتاب فى هذه العبارة مقرونا إلى الشعائر، يعنى مدلولا معينا.. إذ يعنى تحكيم هذا الكتاب فى حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس. فهما طرفان للمنهج الذى تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح الحياة والنفوس بسواه..

والإشارة إلى الإصلاح فى الآية: ﴿ **إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾ يشير إلى هذه الحقيقة.. حقيقة الاستمساك الجاد بالكتاب عملا، وإقامة الشعائر عبادة، فهما أداة الإصلاح الذى لا يضيع الله أجره على المصلحين..

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفى هذا المنهج الربانى..

ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه فى حياة الناس..

وترك العبادة التى تصلح القلوب، فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص، كالذى كان يصنعه أهل الكتاب، وكالذى يصنعه أهل كل كتاب، حين تغتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله..

---

(١) الأعراف: ١٧٠.

إنه منهج متكامل، يقيم الحكم على أساس الكتاب، ويقيم القلب على أساس العبادة.. ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب، فتصلح القلوب، وتصلح الحياة..

إنه منهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجا آخر، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة، وحق عليهم العذاب!

وفى ختام حلقات القصة فى نفس السورة يذكر كيف أخذ على بنى إسرائيل الميثاق:

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

إنه ميثاق لا ينسى.. فقد أخذ فى ظرف لا ينسى! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق، فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس والارتكاس.. ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به فى شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا فى ميثاقهم الوثيق، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقى.. وتظل موصولة بالله لا تنساه!

ولكن بنى إسرائيل فى كل حال هم بنو إسرائيل! إنهم نقضوا الميثاق، ونسوا الله، ولجوا فى المعصية، حتى استحقوا غضب الله ولعنته، وحق عليهم القول، بعدما اختارهم الله على العالمين، وأفاء عليهم من عطاياه، فلم يشكروا النعمة، ولم يحفظوا العهد، ولم يذكروا الميثاق.. وما ربك بظلام للعبيد.. حقا، إنهم يهود!

عهد الملوك :

وانهار عهد القضاة أمام مطالب الحياة الملحة ـ كما يقول الدكتور أحمد شلبى ـ(٢) فقد كان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملا هاما فى محاولة جمع الأسباط كلهم فى وحدة شاملة بعد ما نالهم من إخفاق فى عهد القضاة، وبعد ما شاع من فسق القضاة وأخذهم الرشوة، ويحكى لنا الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الأول قصة الانتقال من عهد القضاة إلى عهد الملوك، وهاك النص :

---

(١) الأعراف: ١٧١.

(٢) مقارنة الأديان: اليهودية: ٥٩ وما بعدها بتصرف.

« لما شاخ صموئيل جعل ابنيه قضاة لبني إسرائيل، ولكنهما لم يسلكا طريقه، وما لا وراء الكسب، وأخذا الرشوة، وعوجا القضاء، فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل وقالوا له: أنت شخت، وابناك لم يسيرا فى طريقك، فالآن اجعل لنا ملكا كسائرالشعوب، فصلى صموئيل إلى الرب، فقال له الرب: اسمع لصوتهم، إنهم لم يرفضوك أنت، ولكنهم رفضونى أنا، إنهم تركونى وعبدوا آلهة أخرى، فاسمع لصوتهم، ولكن اشهد عليهم. قال صموئيل لبني إسرائيل: إن الملك الذى سيملك عليكم سيأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه، ويحرثون له ويحصدون، ويأخذون بناتكم عطارات وطباخات وخبازات،، ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم، ويأخذ جواريكم وشبانكم الحسان وحميركم.. فأبى الشعب أن يسمع لصموئيل، وقالوا: لا بل يكون علينا ملك، مثل سائر الشعوب يخرج أمامنا ويحارب حروبنا..(١).

طالوت :

واختار لهم صموئيل شاؤول ليكون أول ملك عليهم، ويسميه القرآن الكريم «طالوت» وقد قادهم فى المعارك بشجاعة، وكان داود أحد رجاله فى هذه المعارك، ويحكي الإصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول بروز« جلبات » قائد الفلسطينيين الذى يسميه القرآن الكريم« جالوت ».

وأشار صاحب المنار إلى اجتماع شيوخ بنى إسرائيل، وقال:(٢).

وهم المعبر عنهم فى القرآن بالملأ، وذلك فى تفسير قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٣).

ألم تر؟ كأنه حادث واقع ومشهد منظور.. لقد اجتمع الملأمن بنى إسرائيل، من كبرائهم وأهل الرأى فيهم(٤). ولم يرد فى السياق ذكر اسمه؛ لأنه ليس المقصود بالقصة،

---

(١) سفر صموئيل الأول: ٨.
(٢) تفسير المنار : ٢: ٤٧٦.
(٣) البقرة: ٢٤٦.
(٤) فى ظلال القرآن : ١: ٢٦٦ بتصرف.

وذكره هنا لا يزيد شيئا فى إيحاء القصة، وقد كان لبنى إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون فى تاريخهم الطويل.. لقد اجتمعوا إلى نبى لهم، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته« فى سبيل الله».. وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال، وأنه « فى سبيل الله»يشى آنذاك بانتفاضة العقيدة فى قلوبهم، ويقظة الإيمان فى نفوسهم، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل، ووضوح الطريق أمامهم للجهاد فى سبيل الله.

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر.. فلا بد للمؤمن أن يتضح فى حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل، ولا بد أن يتجرد فى حسه الهدف.. فى سبيل الله.. فلا يغشِّيه الغبش الذى لا يدرى معه أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم، وثبات نيتهم، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر:

﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾

ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال إن فرض عليكم؟ فأنتم الآن فى سعة من الأمر. فأما إذا استجيب لكم، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة، ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها..

إنها الكلمة اللائقة بنبى .. وإنه التأكد اللائق بنبى.. فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ..

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة، وذكَر الملأُ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال فى سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذى لا تردد فيه:

﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾

ونجد أن الأمر واضح فى حسهم، مقرر فى نفوسهم.. إن أعداءهم أعداء الله ودين الله. وقد أخرجوهم من ديارهم، وسبوا أبناءهم. فقتالهم واجب، والطريق التى أمامهم هى القتال، ولا ضرورة إلى المراجعة فى هذه العزيمة أو الجدال .

ولكن هـذه الحماسـة الفائرة فى سـاعة الرخـاء لـم تـدم. ويُعَجِّل السياق بكشـف الصفحة التاليـة:

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

إنـهـم يـهــود :

وهنا تطالعنا سمة خاصة من سمات بنى إسرائيل فى نقض العهد، والنكث بالوعد، والتفلُّت من الطاعة، والنكوص عن التكليف، وتفرُّق الكلمة، والتولّى عن الحق المبين..

ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية، فهى سمة بشرية لا تغيِّر منها إلا التربية العالية، الطويلة الأمد، العميقة التأثير.. وهى من ثم سمة ينبغى للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها فى الطريق الوعر، كى لا تفاجأ بها فيتعظمها الأمر! فهى متوقعة من الجماعات البشرية التى لم تخلص من الأوشاب، ولم تُصْهر ولم تَطْهُر من هذه العقابيل.. والتعقيب على هذا التولى:

﴿ **والله عليـم بالظـالمـين** ﴾.

وهو يشى بالاستنكار، ووصم الكثرة التى تولت عن هذه الفريضة ـ بعد طلبها ـ وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية .. وصمها بالظلم .. فهى ظالمة لنفسها، وظالمة لنبيها، وظالمة للحق الذى خذلته، وهى تعرف أنه الحق، ثم تتخلى عنه للمبطلين!

إن الذى يعرف أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل ـ كما عرف الملأ من بنى إسرائيل وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكا ليقاتلوا« فى سبيل الله» ـ ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذى عرفه فى وجه الباطل الذى عرفه .. إنما هو من الظالمين المجزيين بظلمهم:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

---

(١) البقرة : ٢٤٧ .

وفى هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات بنى إسرائيل.. لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه.. ولقد قالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا «فى سبيل الله» فهاهم أولاء يُنغِضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون فى اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم، ويستنكرون أن يكون طالوت ـ الذى بعثه الله لهم ـ ملكا عليهم!

لماذا؟ لأنهم أحق بالملك بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرِّر التغاضى عن أحقية الوراثة!

وكل هذا غبش فى التصور، كما أنه سمة من سمات بنى إسرائيل المعروفة!

قال الشيخ محمد عبده[1] عند ذكر طالوت: هو الذى يسمونه « شاول » وقد سماه الله طالوت فهو طالوت. أى أننا لا نعبأ بما فى كتبهم ـ لما قدمنا ـ وإذا علم القارئ أن القوم لا يعرفون كاتب سفرى صموئيل الأول والثانى من هو؟ ولا فى أى زمان كتبا، فإنه يسهل عليه ألا يعتد بتسميتهم، وأما استنكارهم جعله ملكا فقد صرحوا به، وقالوا: إن منهم من احتقره، ولكن أخبارهم لا تتصل بأسبابها، ولا تقرن بعللها، وقال المفسرون فى استنكارهم لملكه، وزعمهم أنهم أحق بالملك منه، أنه كان من أولاد بنيامين لا من بيت يهوذا، وهو بيت الملك، ولا من بيت لاوى، وهو بيت النبوة، وفهم بعضهم من قوله ﴿**ولم يؤت سعة من المال**﴾ أنه كان فقيرا، وقالوا: كان راعيا أو دباغا أو سقاء. ولا يصح كلامهم فى بيت الملك، لأنه لم يكن فيهم ملوك قبله، ونفيهم سعة المال التى تؤهله للملك فى رأى القائلين لا تدل على أنه كان فقيرا. وإنما العبرة فى العبارة هى ما دلت عليه من طباع الناس، وهى أنهم يرون أن الْمَلِك لا بد أن يكون وارثا للمُلك، أو ذا نسب عظيم يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له، وذا مال عظيم يدبِّر به الملك، والسبب فى هذا أنهم قد اعتادوا الخضوع للشرفاء والأغنياء، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتيـة.

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية، ومن حكمة الله فى اختياره:

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) تفسير المنـار: ٢ : ٤٧٧.

إنه رجل قد اختاره الله.. فهذه واحدة..

وزاده بسطة فى العلم والجسم.. وهذه أخرى..

﴿ **والله يؤتى ملكه من يشاء**﴾ فهو ملكه، وهو صاحب التصرف فيه، وهو يختار من عباده من يشاء..

﴿ **والله واسع عليم** ﴾ ليس لفضله خازن.. وليس لعطائه حد..وهو الذى يعلم الخير، ويعلم كيف توضع الأمور فى مواضعها..

وهى أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش، وأن تجلو عنه الغبش..

قصة التابوت:

ولكن طبيعة بنى إسرائيل ـ ونبيها يعرفها ـ لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها.. وهم مقبلون على معركة ولا بد من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم. وتردها إلى الثقة واليقين:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١).

وهذا يدل ـ كما جاء فى المنار(٢) ـ على أن بنى إسرائيل لم يقتنعوا بما احتج به عليهم نبيهم من استحقاق طالوت الملك بما اختاره الله وأعده له باصطفائه وإيتائه من سعة العلم وبسطة الجسم ما يمكنه من القيام بأعبائه، حتى جعل لذلك آية تدلهم على العناية به، وهى عود التابوت إليهم، وهذا التابوت المعرف صندوق له قصة معروفة فى كتب اليهود. ففى أول الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج ما نصه:

« وكلم الرب موسى قائلا: كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة، من كل من يحثه قلبه يأخذون تقدمتى، وهذه هى التقدمة التى يأخذونها منهم: ذهب وفضة ونحاس،

---

(١) البقـرة: ٢٤٨.	(٢) تفسـير المنار : ٢: ٤٨٢.

وأسما نجونى وأرجوان، وقرمز وبوص وشعر معزى، وجلود كباش محمرة وجلود نخس، وخشب سنط، وزيت للمنارة، وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر، وحجارة جزع، وحجارة ترصيع للرداء والصدرة، فيصنعون لى مقدسا، لأسكن فى وسطهم، بحسب جميع ما أنا أريك عن مثال المسكن، ومثال جميع آنيته، هكذا تصنعون. فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، وتغشيه بذهب نقى، من داخل وخارج تغشيةً، وتصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه، وتسبك له أربع حلقات من ذهب، وتجعلها على قوائمه الأربع، على جانبه الواحد حلقتان، وعلى جانبه الثانى حلقتان، وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب، وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت ليحمل التابوت بهما، تبقى العصوان فى حلقة التابوت لا تنزعان منهما، وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك، وتصنع غطاء من ذهب نقى طوله ذراعان ونصف،وعرضه ذراع ونصف، وتضع كروبين[1] من ذهب صنعة خراطة تضعهما على طرفى الغطاء، فاصنع كروبا واحدا على الطرف من هنا، وكروبا آخر على الطرف من هناك، من الغطاء تصنعون الكروبين على طرفيه، ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق، مظللين بأجنحتهما على الغطاء، ووجهاهما كل واحد إلى الآخر، نحو الغطاء يكون وجها الكروبين، وتجعل الغطاء على التابوت من فوق، وفى التابوت تضع الشهادة التى أنا أعطيك».

هذا ما ورد فى صفة الأمر بصنع ذلك التابوت الدينى، وذكر بعده كيفية صنع المائدة الدينية وآنيتها، والمسكن، والمذبح، وخيمة العهد، ومنارة السراج، والثياب المقدسة، ثم فصل فى الفصل ٢٧ منه كيف كان صنع هذا التابوت والمائدة والمنار ومذبح البخور. وهى غرائب يعدها عقلاء هذه العصور ألاعيب!

والحكمة فيها ـ والله أعلم ـ أن بنى إسرائيل كانوا ـ وقد استبعدهم وثنيو المصريين أحقابا ـ قد ملكت قلوبهم عظمة تلك الهياكل الوثنية، وما فيها من الزينة والصنعة التى تدهش الناظر، وتشغل الخاطر، فأراد الله أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه سبحانه وتذكر به، فالتابوت سمى أولا تابوت الشهادة، أى شهادة الله سبحانه

---

(١) فى المنار : المراد بالكروب : الملك ، أى صورته أو تمثاله، والكروبيون كما فى المعجم الوسيط : المقربون إلى الله من الملائكة (كرب) .

ثم تابوت الرب، وتابوت الله، كذلك أضيف إلى الله تعالى كل شىء صنع للعبادة، وهذا مما يدل على أن تلك الديانة ليست دائمة، فلا غرو إذا نسخ الإسلام كل هذا الزخرف والصنعة من المساجد التى يُعبد فيها الله تعالى حتى لا يشتغل المصلى عن مناجاة الله بشىء منها، وما كَلِفه ذلك الشعب الذى وصفته كتبه المقدسة بأنه« صلب الرقبة » أو كما تقول العرب «عريض القفا» على قرب عهده بالوثنية، وإحاطة الشعوب الوثنية به من كل جانب لا يليق بحال البشر فى طور ارتقائهم، إذ لا يربّى الرجل العاقل بمثل ما يربّى به الطفل أو اليافع. وفى سائر فصول سفر الخروج الثلاثة تفصيل لما قدمه بنو إسرائيل لصنع تلك الدار التى يقدس فيها الله، ولصنع الخيمة والتابوت وغير ذلك، وغرضنا منها معرفة حقيقة التابوت عندهم، فإنك لتجد فى بعض كتب التفسير وكتب القصص عندنا أقوالا غريبة عنه، منها أنه نزل مع آدم من الجنة، ومنشأ تلك الأقوال ما كان ينبذ به الإسرائيليون من القصص بين المسلمين مخادعة لهم، ليكثر الكذب فى تفسيرهم للقرآن فيضلوا به، ويجد رؤساء اليهود مجالا واسعا للطعن فى القرآن يصدون به قومهم عنه.

وفى آخر فصول سفر الخروج أن موسى عليه الصلاة والسلام وضع اللوحين اللذين فيهما شهادة الله، أى وصاياه لبنى إسرائيل فى التابوت، وفى كتبهم الأخرى أنه كان بعده عند فتاة « يشوع » أى « يوشع» وأنهم كانوا يستنصرون بهذا التابوت فإذا ضعفوا فى القتال وجىء به وقدموه تثوب إليهم شجاعتهم، وينصرهم الله تعالى، أى ينصرهم لتلك الشجاعة التى تتجدد لهم بإحضار التابوت لا بالتابوت نفسه، ولذلك غلبوا على التابوت فأخذ منهم عندما ضعف يقينهم وفسدت أخلاقهم، فلم يغن عنهم التابوت شيئا كما قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى.

أقول: وفى سفر تثنية الاشتراع أن موسى لما كمل كتابة هذه التوراة أمر اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب عهد الرب إلهكم، ليكون شاهدا عليكم. (٣١ : ٢٤ ـ ٣٠) .

ثم كانت حرب بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل على عهد « عاليا» أو « عالى الكاهن » فانتصر الفلسطينيون، وأخذوا التابوت من بنى إسرائيل، بعد أن نكّلوا بهم تنكيلا فمات «عالى» قهرا .. ثم قال: ومن المدوَّن فى التاريخ المقدس عندهم أنه لما أحرق البابليون هيكل سليمان فُقِدَت التوراة وتابوت العهد معا؛ لأنهما قد أحرقا فيه.

قيادة وجنود :

قال تعالى :

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

وهنا يتجلى مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل(٢).. إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل فى تاريخها مرة بعد مرة.. وهو يواجه جيش أمة غالبة، فلا بد إذن من قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة ..

هذه القوة الكامنة لا تكون إلا فى الإرادة .. الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وأن يبلو صموده وصبره: صموده أولا للرغبات والشهوات، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب. واختيار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش،ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه.. وصحت فراسته:

﴿ **فشربوا منه إلا قليلا منهم** ﴾ .

شربوا وارتووا. فلقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده، قبل الظمأ، ولكنها لا تشى بالرغبة فى التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم.. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم.. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة.. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والفكرة الحازمة، والإيمان الثابت على الطريق..

---

(١) البقـرة: ٢٤٩.　　(٢) فى ظلال القرآن : ١ :٢٦٨ بتصرف.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفى، ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها.. ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذى لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى فى طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾

لقد صاروا قلة، وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت.. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذى يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته.. إنها التجربة الحاسمة.. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور.. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم، وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع، إيمانهم، غير الموازين التى يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة.. الفئة القليلة المختارة.. والفئة ذات الموازين الربانية:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

هكذا.. «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة» بهذا التكثير.. فهذه هى القاعدة فى حسّ الذين يوقنون أنهم ملاقو الله..القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة؛ لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق، حتى تنتهى إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار.. ولكنها تكون الغالبة؛ لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة.. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، مذل الجبارين، ومخزى الظالمين، وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله: «بإذن الله» ويعللونه بعلته الحقيقية« والله مع الصابرين» فيدللون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

وإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء،

وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة فى الله، وأنه مع الصابرين.. إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، الى لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها..

إذا هذه الفئة هى التى تقرر مصيرالمعركة، بعد أن تُجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهى تواجه الهول الرعيب الرهيب:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١).

هكذا.. « ربنا أفرغ علينا صبرا » وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ . فهى فى يده سبحانه يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ .

فقد وضح الموقف.. إيمان تجاه كفر.. وحق إزاء باطل.. ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين.. فلا تلجلج فى الضمير، ولا غبش فى التصور، ولا شك فى سلامة القصد ووضوح الطريق..

وكانت النتيجة هى التى ترقبوها واستيقنوها:

﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾..

ويؤكد النص هذه الحقيقة« بإذن الله ».. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما.. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجرى فى هذا الكون، ولطبيعة القوى التى تجريه.

إن المؤمنين ستارالقدرة، يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم

---

(١) البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

من الأمر شيء ، ولا حول ولا قوة ، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته ، فيكون منهم ما يريده بإذنه .

وهى حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين ..

إنه عبد الله .. اختاره الله لدوره .. وهذه منة من الله وفضل .. وهو يؤدى هذا الدور المختار، ويحقق قدر الله النافذ. ثم يكرمه الله ـ بعد كرامة الاختيار ـ بفضل الثواب.. ولولا فضل الله ما فعل. ولولا فضل الله ما أثيب.. ثم إنه مستيقن من نيل الغاية، وطهارة القصد، ونظافة الطريق.. فليس له فى شيء من هذا كله أرب ذاتى، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة، قائم بما يريد.. استحق هذا كله بالنية الطيبة، والعزم على الطاعة، والتوجه إلى الله فى خلوص..

ويبرز السياق دور داود:

﴿ **وقتل داود جالوت** ﴾ .

وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل. وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا.. ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجرى بظواهرها، إنما تجرى بحقائقها.. وحقائقها يعلمها هو.. ومقاديرها فى يده وحده.. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا الله بعهدهم. ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذى يريده..

وقد أراد أن يجعل مصرع الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف، يغلبهم الفتية الصغار، حين يشاء الله أن يقتلهم..

وكانت هنا لك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله. فلقد قدر أن داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبى لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل، جزاء انتفاضة العقيدة فى نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والارتكاس والشرود:

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾

وكان داود ملكاً نبياً، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب،مما يفصله القرآن فى آيات أخرى.. أما فى هذا الموضوع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر وراء القصة جميعا..

وحين ينتهى إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية..

حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى.. إنها ليست المغانم والأسلاب وليست الأمجاد والهالات.. إنما هو الصلاح فى الأرض، وإنما هو التمكين للخيربالكفاح مع الشر:

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ .

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث، لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا فى الأرض من اصطراع القوى، وتنافس الطاقات، وانطلاق السعى فى تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار..

وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، فى تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات..

ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق،إلى الخير والصلاح والنماء،فى نهاية المطاف..

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض.. ولولا أن فى طبيعة الناس التى فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش مافيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدا يقظة عاملة،، مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة..

وفى النهاية يكون الصلاح والخير والنماء..

يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة..

تعرف الحق الذى بينه الله لها..

وتعرف طريقها إليه واضحا..

وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق فى الأرض..

وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتمل فى سبيله ما تحتمل فى الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه..

وهنا يمضى الله أمره، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هى العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع فى يد القوة الخيرة البانية، التى استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه.. وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها فى الحياة..

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب فى النهاية وتنتصر.. ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا فى دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح فى الحياة..

إنها تنتصر لأنها تمثل غاية تستحق الانتصـــار..

معالم فى الطـــريق:

ونقبس من هذا كله معالم فى الطريق.. حين نستحضر فى أنفسنا أن القرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة الحى[1]، ورائدها الناصح، وأنه هو مدرستها التى تلقت فيها دروس حياتها.. وأن الله سبحانه كان يربى به الجماعة المسلمة الأولى التى ناط بها إقامة منهجه الربانى فى الأرض، وناط بها هذا الدور العظيم بعد أن أعدها له بهذا القرآن الكريم، وأنه تعالى أراد بهذا القرآن أن يكون هو الرائد الحى الباقى بعد وفاة الرسول ﷺ، لقيادة أجيال هذه الأمة، وتربيتها، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذى وعدها به، كلما اهتدت بهديه، واستمسكت بعدها معه، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن، واستعزت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية. وهى بصفتها هذه، مناهج الجاهلية!

إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى.. ولكنه دستور شامل كامل.. دستور للتربية، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التى جاء لينشئها ويربيها، وتضمّن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية فى الأرض، ومن لدن آدم عليه السلام.. وقدّمها زادا للأمة المسلمة فى جميع أجيالها.. تجاربها فى الأنفس، وتجاربها فى واقع الحياة.. كى تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها، وهى تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع..

---

(١) المرجـــع الســـابق: ٢٦١ بتصـــرف.

ومن ثم جاء القصص فى القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء.. وقصص بنى إسرائيل فى المقدمة، هو أكثر القصص ورودا فى القرآن الكريم، لأسباب عدة، ذكرنا بعضها فيما سبق، ونضيف إليها هذه المعالم فى الطريق ؛ لأن أجيالا من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتى مر فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بموقف بنى إسرائيل، فعرض القرآن الكريم عليها مزالق الطريق، مصورة فى تاريخ بنى إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة، ولترى صورتها فى هذه المرآة المرفوعة لها بيد الحق قبل الوقوع فى تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق !

إن هذا القرآن ينبغى أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعى ، وينبغى أن يتدبر على أنه توجيهات حية، كأنها تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل . لاعلى أنه مجرد كلام جميل يرتل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود!

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة فى يومنا وفى غدنا، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه، لتلتمس عنده التوجيه الحاضر فى شئون حياتها الواقعة..

وحين نقرأ القرآن بهذا الوعى سنجد عنده ما نريد.. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهى!

سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم فى الطريق، وتقول لنا: هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه، وتقول لنا: هذا عدو لكم وهذا صديق، وتقول لنا: هذا فاتخذوا من الحيطة وهذا فاتخذوا من العدة، وتقول لنا حديثا مفصلا دقيقا فى كل ما يعرض لنا من الشئون..

وسنجد عندئذ فى القرآن متاعا وحياة، وسندرك معنى قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [1].

فهى دعوة للحياة.. الدائمة المتجددة.. لا لحياة تاريخية محدودة فى صفحة عابرة من صفحات التاريخ!

---

(١) الأنفال : ٢٤.

وفى الآيات السابقة يعرض تجربة من تجارب بنى إسرائيل، يضمها إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب، ويعدّ بهما الجماعة المسلمة لما هى معرّضة له فى حياتها من المواقف، بسبب قيامها بدورها الكبير، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية، ووارثة التجارب فى هذا الحقل الخصيب.

إنها تجربة فى حياة بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السلام.. بعدما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدىِ ربهم، وتعاليم نبيهم.. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة، استيقظت فى قلوبهم العقيدة، واشتاقوا القتال فى سبيل الله، فقالوا:

﴿ لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ﴾ .

ومن خلال هذه التجربة ـ كما يعرضها السياق القرآنى الموحى ـ تبرز جملة حقائق، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة فى كل جيل، فضلا على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة فى ذلك الحين.

والعبرة الكلية التى تبرز من القصة كلها هى أن هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلى القوم عنها فوجا بعد فوج فى مراحل الطريق.. على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جدا.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين.. ولقد جاءت لهم بملك داود، ثم ملك سليمان.. وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بنى إسرائيل فى الأرض، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه، والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة الكبرى.. وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت!

وفى خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة فى كل حين:

من ذلك.. أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها.. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.. فقد تقدم الملأ من بنى إسرائيل ـ من ذوى الرأى والمكانة فيهم ـ إلى نبيهم فى ذلك الزمان، يطلبون إليه أن

يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون. فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم:

﴿ **هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا** ﴾ .

استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له:

﴿ **وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟** ﴾ .

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق، كما تذكر القصة، وكما يقول السياق بالإجمال:

﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم** ﴾ .

ومع أن لبنى إسرائيل طابعا خاصا فى النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد والتفرق فى منتصف الطريق.. إلا أن هذه الظاهرة هى ظاهرة بشرية على كل حال، فى الجماعات التى لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب.. وهى خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة فى أى جيل.. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بنى إسرائيل .

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر فى نفوس الجماعات ينبغى ألا يقف عند الابتلاء الأول.. فإن كثرة بنى إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم.. ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها، وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة، ووقوع علامة الله باختياره لهم، ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة.. !

ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود فى المرحلة الأولى.. وضعفوا أمام الامتحان الأول الذى أقامه لهم قائدهم :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

وأما هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة.. اعتصمت بالله ووثقت، وقالت:

﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

وهذه هى التى رجحت الكفة، وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين..

وفى ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحاسمة الحازمة المؤمنة. وكلها واضحة فى قيادة طالوت، تبرز منها خبرته بالنفوس، رعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة فى نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه..

ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه فى النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة، ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الله الصادق للمؤمنين ..

والعبرة الأخيرة التى تكمن فى مصير المعركة.. أن القلب الذى يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التى ثبتت وخاضت المعركة، وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا :

﴿ **لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** ﴾ .

ولكنها لم تحكم بحكمهم على الموقف. إنما حكمت حكما آخر، فقالت:

﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

ثم اتجهت لربها تدعوه:

﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ .

وهى تحس أن ميزان القوى ليس فى أيدى الكافرين، إنما هو فى يد الله وحده.. فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التى تملكه وتعطيه..

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا، وعندما يتحقق فى القلب الإيمان الصحيح .

وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون!

ولا تستوعب الإيحاءات التى تتضمنها القصة.. فالنصوص القرآنية ـ كما علمتنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب، فى شتى المواقف على قدر مقســوم..

عهـد الانقسـام وزوال ملك بني إســرائيل:

وننتقل سراعا إلى الدور الثانى للملوك الذين حكموا بنى إسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام حوالى سنة ٩٣٥ ق م [١].

ننتقل إلى هذا الدور الثانى لذى « رَحُبعام » ـ كما يقول الإصحاح الثانى عشر من سفر الملوك ـ قد أعلن نفسه ملكا على دولة اليهود، وبايعه سبطا « يهوذا » « وبنيامين » فى أورشليم على ذلك، ثم اتجه« رحبعام » إلى الشمال لأخذ البيعة من باقى الأسباط، فاجتمع حوله شيوخ بنى إسرائيل فى شكيم « نابلس الآن » وانضم له أخوه« يَرُبْعام » الذى كان قد ثار على أبيه، وفشلت ثورته، فهرب إلى مصر، وعاد إلى فلسطين بعد وفاة سليمان، وقالوا« لرحبعام » ما قالوا عن قسوة سليمان وشدة تضييقه عليهم، وطلبوا أن يخفف من نيره، ونصح المستشارون الشيوخ « رحبعام » بقبول ذلك الرجاء، ولكن زملاءه من الأحداث حذروه من ذلك، ونزل « رحبعام » على رأى الأحداث، وأعلن للقوم أن خنصره أغلظ من مَتْنَى أبيه، وأن أباه أدبهم بالسياط ، وهو سيؤدبهم بالعقارب. ولذلك رفض شيوخ الأسباط فى الشمال أن يبايعوه، وبايع الأسباط العشرة « يربعام » ملكا وأراد «رحبعام» أن يحارب أخاه، ولكن « شمعيا » نصحه بالعدول عن الحرب، وهكذا انقسمت المملكة إلى مملكتين:

جنوبيـة وعاصمتها « أورشليم » واسمها « مملكة يهوذا ».

وشمالية، وعاصمتها « شكيم » [٢] واسمها « إسرائيل » .

---

(١) مقارنة الأديان : اليهودية: ٦٧ وقيل: سنة ٩٥٣ وقيل : سنة ٩٧٥ انظر: بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١:٥٣ .
(٢) المرجع السابق : ٦٧ ـ ٦٨ نقلا عن سفر الملوك الأول: الإصحاحان : ١١ ـ ١٢ .

يقول الدكتور أحمد شلبي: ومن مطالعتنا للعهد القديم ـ سفر الملوك الأول والثاني ـ وللمراجع التاريخية (١) يمكن أن نوجز تاريخ هاتين المملكتين في العبارات الآتيـة:

ـ ضعفت مملكـة « سليمان » في آخر أيامه، وبخاصة عندما ثار عليه ابنه « يربعام » وأيده كثير من الشيوخ نتيجة لسياسة « سليمان » .. وكان سلطان مصر « شيشنق » قد بدأ يقوى، وأصبح في حالة تمكنه من استعادة سلطانه على فلسطين، لولا الإبقاء على صلة النسب بينه وبين سليمان، على أن « شيشنق » مهد لاستعادة سلطانه على فلسطين باغتيال «حيرام» ملك صور الذى هيأت تجارته أنواعا من الغنى لداود وسليمان. وكذلك بحمايته ليربعام الابن الثائر على أبيه.

ـ لما مات« سليمان » بدأ « شيشنق » ينفذ تخطيطه، واستغل « يربعام» في ذلك، فلما نجح « يربعام » في تقسيم الدولة والتسلط على جزئها الشمالي كان ذلك في الحقيقة انتصارا عمليا لفرعون مصر، ولم يكتف « شيشنق » بهذا، بل غزا فلسطين، وصعد على أورشليم ونهبها، وبسط سيطرته على دولة يهوذا، ثم على دولة إسرائيل، وامتد سلطانه إلى الجبل.

ـ تعرضت هاتان الدولتان أيضا إلى الضغط من جهة الشمال، للقضاء على القوة اليهودية الدخيلة في المنطقة من جهة، وللمنافسة بين العراق ومصر من جهة أخرى.

ـ كانت دولة إسرائيل تمثل أغلبية الأسباط، وكانت أوسع رقعة من دولة يهوذا، ولكن دولة إسرائيل كانت مضطربة كثيرة الانقلابات .في حين كانت دولة يهوذا أكثر استقرارا وهدوءا، ومن أجل هذا تقلب على عرش مملكة إسرائيل ملوك من أسر متعددة وتغيرت عاصمتها مع الانقلابات أكثر من مرة، أما يهوذا فقد ظل الملك بها سلسلة متصلة من ذرية سليمان ، وظلت عاصمتها أورشليم ، وتساوى عدد الملوك هنا وعددهم هناك (١٩ ملكا)(٢).

ـ يتحدث سفر الملوك: الأول والثاني، وسفر الأيام: الأول، بإفاضة عن الوقائع التي

---

(١) انظر المرجع السابق.

(٢) انظر أسماء وعدد ملوك يهوذا، وإسرائيل، ومدة حكم كل منهم، والسنة التي تولى فيها الملك في : بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ١: ٥٤ وما بعدها.

تكاد تكون متصلة بين دولتى اليهود من جانب ومجاوريهم من جانب آخر، وكذلك عن الوقائع الغادرة بين دولة يهوذا وبين دولة إسرائيل، وطالما استعانت إحدى هاتين الدولتين على الأخرى بدولة مجاورة، وكان وقوع دولتى اليهود بين مصر من جهة وآشور وبابل من جهة أخرى مثارا لحروب طويلة كانت فلسطين ميدانها، حتى يمكن القول بأن عهد الانقسام كان عهد دماء تسيل، وأرواح تزهق، وأنين ينبعث.

ويصف الأستاذ محمد عزة دروزة علاقة الدولتين بغيرهما من الدول فيقول:

ويبدو أن صلات مملكتى: يهوذا وإسرائيل بغيرهما من الدول ، كانت على حسب الظروف: عدائية أو عدوانية، أو مذبذبة أو غادرة، أو فى صورة خضوع وذلة، وأن الشعوب الأخرى عاملتهم بالمثل، وكالت لهم بمثل كيلهم، فكانوا فى معظم مدة وجودهم فى عداء وحروب مع الغير، وعرضة للغزوات والغازات والسيطرة والإذلال، ثم انتهى الأمر إلى نسف دولتهم وإجلائهم عن بلادهم؛ لأن الآشوريين والكلدانيين رأوا ذلك هو العلاج الحاسم لما كان منهم من غدر ومراوغات وتذبذب وتناقضات [١].

ويصف أحد الكتاب الغربيين هذه النهاية فيقول:

لم يتمتع الشعب العبرانى بخفض العيش إلا أمدا وجيزا، فمات « حيرام » وانقطع عن عون «صور» الذى كانت تقوى به « أورشليم »ثم قوت شوكه مصر ثانية، ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقى الرحى، تعركهما على التوالى سوريا، ثم بابل من الشمال ، ومصر من الجنوب وهى قصة نكبات ، وقصة تحررات لاتعود عليهم إلا بإرجاع نزول النكبة القاضية، هى قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج ، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ق م محت يد الأسر الآشورى مملكة إسرائيل من الوجود وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ق م [٢] .

ويصور « ولز » حال المملكتين الإسرائيليتين فيقول :

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم : ١٥٧ .

(٢) مقارنة الأديان : اليهودية : ٦٩ وبنو إسرائيل فى الفرآن والسنة : ١: ٦١ ـ ٦٢ نقلا عن : موجز التاريخ : هـ ج . ولز، نقلا عن : بلادنا فلسطين: ١: ٥٦٤ مصطفى مراد الدباغ ،دار الطليعة : بيروت .

كانت حياة العبرانيين فى فلسطين تشبه حالة رجل يصرعلى الإقامة وسط حريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار.. ومن المبدأ إلى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ فى تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الذى هو أكبر وأعظم من تاريخهم (١).

اليهود بعد سقوط إسرائيل ويهوذا :

ولا نتحدث عن الأسر البابلى، وما تبع ذلك من نفى وأسر حتى لا يطول بنا الحديث من الناحية التاريخية.. فإن فلسطين قد خلت تقريبا من اليهود إثر سقوط مملكتى إسرائيل ويهوذا (٢)، وفى سنة ٥٣٨ ق م احتل« قورش » ملك الفرس بلاد « بابل » ومن ثم أصبح له السلطان على أرض يهوذا، وأطلق الفرس على شعب يهوذا اسم «اليهود»، وأطلقوا على عقيدتهم اسم « اليهودية »(٣) ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة «اليهود» تعنى: من اعتنق اليهودية، ولو لم يكن من بنى إسرائيل(٤)، وهذا هو الفرق بين اليهودى والإسرائيلى، وسمح «قورش» لليهود بالعودة إلى فلسطين، واستئناف عهد الحرية بها فى ظله، ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة البابلية، وامتدت بها أعراقهم، وعرفوا بها خصب العيش، والتجارة الرابحة، ومن ثم فقد ترددوا طويلا فى العودة للقفار والصراع حول المدينة المقدسة، وبعد هذا التردد استقر رأى الأغلبية الساحقة على البقاء، حيث كانوا بالعراق ومصر وغيرهما من البلاد التى نزحوا إليها عقب سقوط دولتهم على يد بختنصر(٥)، ولم تقبل العودة إلى فلسطين إلا قلة بدأت رحلتها بعد سنتين من مجيء «قورش».. وكانت عودة اليهود من المنفى عودة الجموع وليست عودة الدولة، فإن بعض بنى إسرائيل عادوا ولكن دولتهم لم تعد، فقد صاروا جماعة تابعة للحكم الفارسى وخاضعة له، وكانت المناوشات لا تنقطع بينهم وبين حكامهم الفرس.. وجاء المكابيون .. وحانت فرصة تدخل الدولة الرومانية.. واكتسح الرومان فلسطين سنة ٦٣ ق م واستولوا

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١: ٦٢ نقلا عن : موجز التاريخ . هـ . ج . ولز : نقلا عن : بلادنا فلسطين : ١: ٥٦٤ مصطفى الدباغ ، دار الطليعة ، بيروت .

(٢) مقارنة الأديان : اليهودية : ٧١ .

(٣) قصة العقائد : ٣١٨ سليمان مظهر .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦: ٩٥ دكتور جواد على ، وصبح الأعشى : ٢٥٣:١٣.

(٥) انظر : مقارنة الأديان : اليهودية : ٧٢ هامش .

على القدس.. ودمر الإمبراطور مدينة « أورشليم » وأحرق « الهيكل » [١]، وفى سنة ١٣٥م دمر الرومان « أورشليم » مرة أخرى تدميرا تاما، وحرثوا أرضها، وتخلصوا من البقية الباقية بها من اليهود ما بين قتل وتشريد ، فرحل من استطاع الهرب منهم إلى مصر وشمال أفريقية وأسبانيا وأوربا، وأقام الإمبراطور الرومانى « أدريانوس » مكان الهيكل اليهودى هيكلا وثنيا باسم الإله المشترى « جوبيتر » إذ لم تكن المسيحية قد اعترف بها بعد، وبقى هذا الهيكل إلى أن قامت المسيحية فى « أورشليم »، فدمره المسيحيون من أساسه فى عهد الإمبراطور « قسطنطين »[٢].

---

(١) انظر : المرجع السابق ٧٣ .

(٢) انظر: المرجع السابق ، نقلا عن : فلسطين والضمير العالمى: ٥٤ ـ ٥٦ محمد على علوبة ، وإسرائيل العدو المشترك: ٢٥ لواء محمد صفوت .



الفصل الرابع

في الجزيرة العربية

الهجرة إلى الجزيرة ـ « يا بنى إسرائيل » ـ مساكن اليهود وأحوالهم ـ نفوس ودروس .



الهجــرة إلى الجـزيرة :

وهاجراليهود إلى الجزيرة.. وهناك خلاف طويل بين المؤرخين في الوقت الذي هاجروا فيه (١)..

فبعضهم يرى أن هجرتهم إليها كانت في عهد « داود » عليه السلام.

وبعضهم يرى أن نزوحهم إليها كان في عهد« حزقيال » الذي حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ إلى سنة ٦٩٠ ق م .

إلا أن هذين الرأيين ليس لهما سند ثابت من التاريخ، ولذا لم يعتمد عليهما المحققون من المؤرخين.

والذى ارتضاه بعض هؤلاء المؤرخين، هو الرأى القائل بأن الهجرة الكبرى لليهود إلى الجزيرة كانت في القرن الأول الميلادى، بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠م.

يقول الدكتور« إسرائيل ولفنسون » (٢) : « بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود في أصقاع العالم، قصدت جموع قصيرة من اليهود بلاد العرب ، كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى « يوسيفوس» الذى شهد تلك الحروب، وكان قائدا لبعض وحداتها » .

ثم يقول : « وتؤيد المصادر العربية كل هذا : فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام، فوطئوهم وقتلوهم، ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى مَنْ بالحجاز مِن بنى إسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم ليردهم فأعجزوه، وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لا نبات فيها ولا ماء ، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا، وسمى الموضع « تمر الروم » فهو اسمه إلى اليوم ».

ويرجح الدكتور جواد على ــ أيضا ــ أن هجرة اليهود إلى الجزيرة كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول (٣) : أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١:٧٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب: ٩ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦: ١٠.

أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين. ومن هؤلاء المهاجرين ـ على رأى الإخباريين ـ بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو بهدل، ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه رديئا، فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا طيبا، وأرضا عذبة، حتى إذا بلغ «العالية» وهى « بطحان » و « مهزور » وهما واديان بأرض عذبة بها مياه وعيون، استقر رأيهم على الإقامة فيها، فنزل بنو النضير ومن معهم على « بطحان » ونزلت قريظة وبهدل على « مهزور ».

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى[١] : وبذلك نرى أن الرأى القريب من الصواب، هو أن غالبية يهود جزيرة العرب حلوا بها فى القرن الأول الميلادى ، أى بعد تدمير «أورشليم» الثانى على يد « تيطس» الرومانى، وكان حلولهم بها من أهم أسباب، فرارهم من وجه الرومان، حتى ينجوا من بطشهم وفتكهم بهم.

« يا بنى إسرائيل »:

وإذا كنا قد عرفنا أن لفظ إسرائيل قد ذكر فى القرآن الكريم مرتين، فإن لفظ بنى إسرائيل قد ورد أكثر من أربعين مرة [٢] ، وحسبنا أنه ذكرهم فى مواضع متنوعة بهذه العبارة، وربط فى كثير من آياته بين أخلاق اليهود المعاصرين للنبى ﷺ وبين أخلاق الذين أرسلوا إليهم، وبين ماكان عليه الجميع من: كفر وتكذيب واعتداء على الرسل الذين جاءوا لهدايتهم، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [٣] .

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١ : ٧٤ .

(٢) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٣) البقرة : ٤٠ ــ ٤١ .

وهذا ـ كما يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى [(١)] ـ يجعلنا نجزم بأن اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها من بنى إسرائيل، وليس أصلهم من العرب؛ لأن توجيه الخطاب إليهم بهذه الصورة يفيد أنهم من نسل أولئك الآباء الذين آذوا موسى وعيسى وغيرهما من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وفضلا عن هذا فإن اليهود فى العهد النبوى كانوا يعيشون فى أحياء وقرى خاصة بهم، وكانت لهم لغتهم العبرية التى يتخاطبون بها فيما بينهم، كما كانت لهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم التى لايشاركهم فيها غيرهم، بل هم كانوا يعتبرون عقيدتهم اليهودية وقفا عليهم وحدهم .

وقد فصَّل الأستاذ محمد عزة دروزة الحديث فى هذا الموضوع فقال ما ملخصه:

« لم يكن فى الحجاز قبائل عربية متهودة، وإن كان لايبعد أن يكون هناك بعض أفراد من العرب تهودوا، مع أنه ليس هناك من الأسانيد الوثيقة مايساعد على الجزم بذلك، وتسمية بنى النضير ، أو بنى قريظة أو بنى قينقاع، لاتقوم دليلا ، وكل ما يمكن أن تدل عليه هو اقتباس الإسرائيليين تسميات وصيغا متناسبة مع البيئة التى طال عهد إقامتهم فيها وماروى من أسماء عربية كان يتسمى بها بعض اليهود، فإن الروايات وهى تذكر هذه الأسماء لا تلبث أن تذكر آباء أصحابها الإسرائيلية مثل عبد الله بن صوريا، ورفاعة بن يزيد بن التابوت .. إلخ .

بل إنا لنذهب إلى أبعد من هذا فنقول : إنه لم يكن كذلك فى سائر جزيرة العرب ـ وخاصة اليمن ـ كتل عربية يهودية فى عصر النبى ﷺ، وإذا كانت الروايات تذكر أن بعض أحياء اليهود فى الحجاز استطاعوا نشر اليهودية فى اليمن فى عهد التابعة، فليس هناك سند وثيق يؤيد ذلك، ومع هذا فإن كتب السيرة القديمة لم تتضمن أية إشارة إلى وجود يهود فى اليمن فى زمن النبى ﷺ ، كما أنها لم تذكر أن عمر رضى الله عنه أجلى يهود عن اليمن، حينما أجلى النصارى العرب عن نجران اليمن .. وهذا يدل على أنه لم يكن فى اليمن ـ فى عهد النبى ﷺ ـ يهود ، وإنما كان بقية منهم فى الحجاز » [(٢)] .

---

(١) المرجع السابق : ٧٥ بتصرف .

(٢) تاريخ الجنس العربى: ٥ : ١٤٨ وعصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة : ١٠٥ والقرآن واليهود : ٣٤.

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى[1] ومن هذا يتبين أن يهود الجزيرة من أصل يهودى، وأنهم كانوا جماعات طارئة عندما أجليت عن المدينة وضواحيها، لم تترك آثارا تشهد بأصالتها فى سكنى تلك المناطق.

مساكن اليهود وأحوالهم :

وأما عن مساكن اليهود فبعضها كان بداخل المدينة، وبعضها كان قريبا منها، وبعضها كان بعيدا عنها.

فبنو قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة فى محلة خاصة بهم، بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التى كانت خارج المدينة.

وبنو النضير كانت منازلهم « بالعالية » بوادى بطحان على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة، وكانت عامرة بالنخيل والزروع.

وبنو قريظة كانوا يسكنون فى منطقة « مهزور» التى تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة.

ومن بين اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها بطون صغيرة أخرى، كبنى عكرمة، وبنى ثعلبة، وبنى عوف، وبنى القصيص وغيرهم، إلا أن هذه البطون الصغيرة كانت تابعة فى سياستها للبطون الكبرى: كبنى قينقاع، والنضير، وقريظة.

يقول الدكتور جواد على : « وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود « بالكاهنيّين » نسبوا بذلك إلى جدهم الذى يقال له« الكاهن» و « الكاهن »هو ابن هارون ابن عمران، على زعم بعض الأخبار، فهم على هذه النسبة من أصل رفيع، ولهذا كانوا يفتخرون به، ويرون لهم السيادة على غيرهم من إخوانهم فى الدين» [2].

وأما يهود خيبر فكانوا يسكنون على بعد ثمانى برد من المدينة إلى جهة الشام، وقد اشتهر يهود خيبر بغناهم لخصوبة أرضهم، وكثرة مزارعهم وبساتينهم، كم اشتهروا أيضا بضخامة حصونهم ومتانتها...

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١: ٧٧ بتصرف.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦: ١٣.

وعلى مقربة منهم كان يسكن قسم آخر من اليهود، كيهود وادى القرى وتيماء وفدك.

ومساكن اليهود عموما كانت تمتاز بعزلتها ومتانتها، وقد أقاموها كذلك ليتحصنوا فيها عند الأخطار، وليدافعوا عن أنفسهم من ورائها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ (1).

ومن أقوى حصون اليهود، حصن النطاة، والصعب بن معاذ، وناعم، والزبير، والقموص، والوطيح، وسلالم.. وكلها كانت توجد فى منطقة خيبر.

كما كانت تمتاز - فى مجموعها - بوجودها فى المناطق الخصبة، والتى هى ملتقى طرق المواصلات والتجارة البحرية والبرية من جزيرة العرب.

ومن أهم الأعمال التى اشتغل بها اليهود: التجارة، حتى صار لبعضهم فيها شهرة كبيرة، كأبى رافع سلام بن أبى الحقيق، الذى كان ينعت بتاجر أهل الحجاز، ويمكن أن يقال: إن تجارة التمر والشعير والقمح والخمر تكاد تكون وقفا عليهم فى شمال الحجاز، وكذلك اشتغل اليهود بالزراعة التى كانت المهنة الرئيسة لسكان القرى منهم، واشتغلوا بتربية الماشية والدواجن، وكانوا فى جهات «مقنا» يشتغلون بصيد الأسماك، وكانت نساؤهم يشتغلن بنسج الأقمشة، ومن الصناعات التى كان يهود الجزيرة العربية يزاولونها صناعة الصياغة، وقد اشتهر بها بنو قينقاع، كما كانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية.

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطى الربا، وكان لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك؛ لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد.

وقد وبخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا الذى نهاهم الله عن أخذه، فقال تعالى:

---

(1) الحشر: 14.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١).

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية فى المدينة وضواحيها أن قوى نفوذهم المالى ، وصاروا يتحكمون فى الأسواق تحكما فاحشا ، ويحتكرونها لمصلحتهم ، ومنفعتهم ، فكرههم السواد الأعظم من الناس، بسبب أنانيتهم وأخذهم الربا ، وحصولهم على المال بطرق خبيثة يأنف العربى عن سلوكها والتعامل بها.

نفـوس ودروس :

ولا يفوتنا أن نقف أمام قوله تعالى:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

يقول ابن كثير(٣) : يقول تعالى آمرا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبى الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق.. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٤).

وإن المستعرض لتاريخ بنى إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التى أفاضها الله عليهم ، ومن الجحود المنكر المتكرر الذى قابلوا به هذا الفيض المدرار.. وهنا يذكرهم الله

---

(١) النســاء : ١٦١ ـ ١٦٢.
(٢) البقـرة : ٤٠ ـ ٤٢ .
(٣) تفسير ابن كثير : ١ : ٨٢ بتصرف.
(٤) الإســـراء : ٣.

بنعمته التى أنعمها عليهم إجمالا، قبل البدء فى تفصيل بعضها فيما بعد.. يذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معهم سبحانه، كى يتم عليهم النعمة ، ويمد لهم فى الآلاء (١).

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾

قال ابن جرير(٢) : ونعمته التى أنعم بها على بنى إسرائيل جل ذكره: اصطفاؤه منهم الرسل، وإنزاله عليهم الكتب، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه إلى التمكين لهم فى الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المن والسلوى، فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلى آبائهم على ذكر، وألا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحل بهم من النقم ما أحل بمن نسى نعمة منهم وكفرها وجحد صنائعه عنده .

وروى ابن جرير عن ابن زيد قال: نعمه عامة، ولا نعمة أفضل من الإسلام ، والنعم بعد تبع لها، وقرأ قول الله تعالى :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (٣) .

وتذكير الله الذين ذكرهم جل ثناؤه بهذه الآية من نعمه على لسان رسوله محمد ﷺ، نظير تذكير موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أسلافهم على عهده الذى أخبر الله عنه أنه قال لهم، وذلك قوله:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٤) .

وأما قوله تعالى:

﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ .

---

(١) فى ظلال القرآن: ١:٦٦ بتصرف .
(٢) تفسير الطبرى: ١:٢٤٩.
(٣) الحجرات : ١٧.
(٤) المائدة : ٢٠.

فقد قال ابن جرير فى تفسير قوله جل شأنه:

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (١).

اختلف أهل المعرفة(٢) فى معنى العهد الذى وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ونقضهم ذلك تركهم العمل به.

وقال آخرون: إنما نزلت هذه الآيات فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وإياهم عنى الله جل ذكره بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

وبقوله سبحانه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤).

فكل ما فى هذه الآيات فعذل لهم وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم، قالوا: فعهد الله الذى نقضوه بعد ميثاقه: هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد ﷺ إذا بعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك على الناس، بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر الله جل ثناؤه أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا.

وقال بعضهم: إن الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق، وعهده إلى جميعهم فى توحيده ما وضع لهم من الأدلة على ربوبيته، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثلها، الشاهدة

---

(١) البقرة : ٢٧.
(٢) المرجع السابق : ١٨٢ بتصرف.
(٣) البقرة : ٦ .
(٤) البقـرة : ٨.

لهم على صدقهم. قالوا: ونقضهم ذلك، تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب، مع علمهم أن ما أتوا به حق.

وقال آخرون: العهد الذى ذكره الله جل ذكره، هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم، الذى وصفهم فى قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (١).

ونقضهم ذلك: تركهم الوفاء به.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال عندى بالصواب فى ذلك قول من قال: إن هذه الآيات نزلت فى كفار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ، وما قرب منها من بقايا بنى إسرائيل، ومَنْ كان على شركه، من أهل النفاق.. وقد دللنا على أن قول الله جل شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

فيهم أنزلت، وفيمن كان على مثل الذى هم عليه من الشرك بالله، غير أن هذه الآيات عندى وإن كانت فيهم نزلت، فإنه معنىٌّ بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال، ومعنىٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصة جميع المنافقين، وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود جميع من كان لهم نظيرا فى كفرهم، وذلك أن الله جل ثناؤه يعم أحيانا جميعهم بالصفة لتقديمه ذكر جميعها، فى أول الآيات التى ذكرت قصصهم، ويخص أحيانا بالصفة بعضهم لتفصيلة فى أول الآيات بين فريقهم، أعنى فريق المنافقين من عبدة الأوثان، وأهل الشرك بالله، وفريق كفار أحبار اليهود، فالذين ينقضون عهد الله: هم

---

(١) الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣.

التاركون ما عهد الله إليهم، من الإقرار بمحمد ﷺ، وبما جاء به وتبيين نبوته للناس، الكاتمون بيان ذلك بعد علمهم به، وبما قد أخذ الله عليهم في ذلك، كما قال الله جل ذكره:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (1).

ونبذهم ذلك وراء ظهورهم: هو نقضهم العهد الذى عهد إليهم فى التوراة الذى وصفناه، وتركهم العمل به.

وإنما قلت: إنه عنى بهذه الآيات من قلت إنه عنى بها؛ لأن الآيات من ابتداء الآيات الخمس والست من سورة البقرة فيهم نزلت إلى تمام قصصهم، وفى الآية التى بعد الخبر عن خلق آدم وأبنائه فى قوله:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

وخطابه إياهم جل ذكره بالوفاء فى ذلك دون سائر البشر ما يدل على أن قوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾

مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركى عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب، وإن كان لمن وصفت من الفريقين فداخل فى أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ وكل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهى.

فمعنى الآية إذاً: وما يضل به إلا التاركين طاعة الله الخارجين عن اتباع أمره ونهيه، الناكثين عهود الله التى عهدها إليهم فى الكتب التى أنزلها إلى رسله وعلى ألسن أنبيائه باتباع أمر رسوله محمد ﷺ، وما جاء به، وطاعة الله فيما افترض عليهم فى التوراة من تبيين أمره للناس، وإخبارهم إياهم أنهم يجدونه مكتوبا عندهم أنه رسول من عند الله،

---

(1) آل عمران: ١٨٧.

مفترضة طاعته. وترك كتمان ذلك لهم، ونكثهم ذلك ونقضهم إياه، هو مخالفتهم الله فى عهده إليهم فيما وصفت أنه عهد إليهم، بعد إعطائهم ربهم الميثاق بالوفاء بذلك، كما وصفهم به جل ذكره بقوله:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾[1].

والآيات تبدأ بنداء جليل إلى بنى إسرائيل، هؤلاء الذين واجهوا الدعوة فى المدينة مواجهة منكرة[2]، وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة، وكادوا لها كيدا موصولا، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام فى المدينة، وتبين لهم أنه فى طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التى كانت لهم، مذ وحّد الأوس والخزرج تحت راية الأنصار، تلك التى توحدت مع راية المهاجرين تحت راية الأخوة فى الله عز وجل، ومن ثم سد الثغرات التى كانت تنفذ منها يهود، وشرع منهجا جديدا مستقلا، يقوم على أساس الكتاب الجديد.. القرآن الكريم.. الذى يهدى للتى هى أقوم..

هذه المعركة التى شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد.. ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة، بنفس الوسائل، ونفس الأساليب، لا يتغير إلا شكلها.. أما حقيقتها فباقية.. وأما طبيعتها فواحدة.. وذلك على الرغم من أن العالم كله ـ كما أسلفنا ـ كان يطاردهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن.. حتى أصبحوا هكذا مشردين بلا وطن! وحتى أصبح الحديث عن الوطن اليهودى أسطورة!

إنهم لم يجدوا لهم صدرا حنونا إلا فى العالم الإسلامى المفتوح، الذى ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا ينكر التدين ولا يكيد للمسلمين!

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود فى المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة،

---

(١) الأعراف : ١٦٩.   (٢) فى ظلال القرآن : ١: ٦٣ وما بعدها بتصرف.

ويؤمن للرسول الجديد، مذ كان القرآن يصدق ما جاء فى التوراة فى عمومه، ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول ﷺ.. وعندهم أوصافه فى البشارات التى يتضمنها كتابهم، وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين.. كما سيأتى.

تبدأ هذه الآيات بنداء علوى جليل إلى بنى إسرائيل، يذكرهم بنعمته تعالى عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه، ليوفى بعهده معهم..

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بنى إسرائيل أن يخافوه وحده، وأن يفردوه بالخشية ويدعوهم أن يؤمنوا بما أنزل على رسوله، مصدقا لما معهم، وألا يسارعوا إلى الكفر به، فيصبحوا أول الكافرين، وكان ينبغى أن يكونوا أول المؤمنين.

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ﴾ .

فما الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ إلا الدين القيم الواحد الخالد، جاء به فى صورته الأخيرة، وهو امتداد لرسالة الحق، ولعهد الله منذ البشرية الأولى ، يضم جناحيه على مامضى، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتى ... ويضيف ما أراده الله من الخير والصلاح للبشرية في مستقبلها الطويل، ويجمع بذلك بين البشر كلهم إخوة متعارفين، يلتقون على عهد الله، ودين الله ، لا يتفرقون شيعا وأحزابا، وأقواما وأجناسا، ولكن يلتقون عبادا لله ، مستمسكين جميعها بعهده الذي لا يتبدل منذ فجر الحياة ..

وينهى الحق بنى إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله الله مصدقا لما معهم، شراء للدنيا بالآخرة، وإيثارا لما بين أيديهم من مصالح خاصه لهم ـ وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم ، وما تدره عليهم من منافع وإتاوات ـ ويدعوهم إلى خشية الله وحده وتقواه :

﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون ﴾ .

والثمن والمال والكسب الدنيوى المادى ... كله شنشنة يهود من قديم !

وقد يكون المقصود بالنهى هنا هو مايكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبه على الأغنياء منهم والكبراء ، كما ورد فى مواضع أخرى، واستبقاء هذا كله فى أيديهم بصد شعبهم عن الدخول فى

الإسلام، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة .. على أن الدنيا كلها ثمن قليل، حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله . وإلى عاقبة الإيمان فى الآخرة عند الله .

ويمضى السياق يحذرهم ماكانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق وهم يعلمونه ، بقصد بلبلة الأفكار فى المجتمع المسلم، وإشاعة الشك والاضطراب:

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت لهم كما فصل القرآن فى مواضع منه كثيرة، وكانوا دائما عامل فتنة وبلبلة فى المجتمع الإسلامى، وعامل اضطراب وخلخلة فى الصف المسلم ..

ثم يدعوهم إلى: الاندماج فى موكب الإيمان، والدخول فى الصف، وأداء عبادته المفروضة، وترك هذه العزلة، وهذا التعصب الذميم، وهو ماعرفت به يهود من قديم:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (١) .

قال ابن جرير (٢) : ذكر أن أحبار اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولايفعلونه، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدقين بمحمد، وبما جاء به ، وإيتاء زكاة أموالهم معهم، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا .

ثم ينكر عليهم ــ وبخاصة أحبارهم ــ أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين، وهم فى الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله ، المصدق لما معهم :

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

قال ابن كثير (٤) : يقول تعالى : كيف يليق بكم يامعشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب ، وتعلمون مافيه على من قصَّر فى أوامر الله ؟

---

(١) البقرة: ٤٣.
(٢) تفسير الطبرى: ١: ٢٥٧ بتصرف.
(٣) البقـرة : ٤٤.
(٤) تفسـير ابن كثير : ١: ٨٥ بتصرف.

أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم .فتنتبهوا من رقدتكم . وتتبصـروا من عمايتكـم ؟!

ومع أن هذا النص القرآني كان يواجـه ابتـداء حالة واقعـة من بني إسرائيل ، فإنـه في إيحائه للنفس البشرية [1]، ولرجال الدين عند هؤلاء ومن على شاكلتهم بصفة خاصة، دائم لا يخص قوما دون قوم، ولا يعنى جيلا دون جيل.

إن آفة رجال الدين عند هؤلاء ومن على شاكلتهم ـ حين يصبح الدين حرفـة وصناعـة لا عقيدة حارة دافعة ـ أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البر ويهملونه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويصدرون فتاوى وتأويلات تختلف في حقيقتها عن حقيقة الديـن، وذلك لتبرير أغـراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان! كما يفـعل أحبار يهود!

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك، لافي الدعاة وحدهم، ولكن في الدعوات ذاتها وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم؛ لأنهم يسمعون قولا جميلا، ويشهدون فعلا قبيحا، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة، وينطفئ في قلوبهم النور الذى يشعله الإيمان، ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم بالدعاة إليه.

إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها.. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيما واقعيا لما ينطق .. عندئذ يؤمن الناس.. ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها، لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها، لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة؛ لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، بين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمرا هينا، ولا طريقا معبدا.. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة، وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه، فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيرا ما تنأى بالفرد في واقعه

(١) في ظلال القرآن: ١: ٦٨ بتصرف.

عما يعتقده فى ضميره، أو عما يدعو إليه غيره.. والفرد الفانى ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته؛ لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه، وقد يغالبها مرة ومرة ومرة.. وحين تنتابه لحظة ضعف يتخاذل ويتهاوى، ويخسر الماضى والحاضر، ويسقط فى المستقبل، فأما هو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوى قوى.. قوى على شهوته وضعفه.. قوى على ضروراته واضطراراته.. قوى على ذوى القوة الذين يواجهونه..

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذين كان يواجههم أولا، ويوجه الناس كلهم ضمنا، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة..

وفى حالة اليهود كان مطلوبا منهم أن يؤثروا الحق الذى يعلمونه على المركز الخاص الذى يتمتعون به فى الجزيرة التى آوتهم - كما عرفنا - والتى هم غرباء ودخلاء على أهلها.. وكان مطلوبا منهم - كذلك - أن يؤثروا هذا الحق على الثمن القليل - كما أسلفنا - وأن يدخلوا فى موكب الإيمان وهم يدعون الناس إلى الإيمان! وكان هذا يقتضى قوة وشجاعة واستعانة بالصبر والصلاة:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (١).

وقال ابن جرير(٢) : استعينوا على الوفاء بعهدى الذى عاهدتمونى فى كتابكم من طاعتى واتباع أمرى، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى، واتباع رسولى محمد ﷺ بالصبر عليه والصلاة.

قال ابن كثير(٣) : والضمير فى قوله: « وإنها لكبيرة» عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير(٤) ، ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام، وهو الوصية، كقوله تعالى فى قصة قارون :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ (٥).

---

(١) البقرة : ٤٥ - ٤٦. (٢) تفسير الطبرى : ١: ٢٥٩. (٣) تفسير ابن كثير : ١:٨٧.
(٤) تفسير الطبرى : ١: ٢٦١. (٥) القصص: ٨٠ .

وقال تعالى :

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١).

أى وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، وما يلقاها: أى يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم، وعلى كل تقدير فقوله تعالى: « وإنها لكبيرة » أى مشقة ثقيلة، إلا على الخاشعين، قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: يعنى المصدقين بما أنزل الله..

وقال ابن جرير(٢): معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله، وكفها عن معاصى الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، والمقربة من مراضى الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته.

قال ابن كثير: والظاهر أن الآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هى عامة لهم ولغيرهم.

وعلى كل فإن الدعوة إلى الاعتراف بالحق فى وجه هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقه(٣) ، إلا على الخاشعين الخاضعين لله، الشاعرين بخشيته وتقواه، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين.

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيرا، فهو الزاد الذى لا بد منه لمواجهة كل مشقة، وأول المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراما للحق، واعترافا بالحقيقة وخضوعا لها.

فما الاستعانة بالصلاة ؟

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب.. يستمد منها القلب قوة، وتحس فيها الروح صلة، وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا.. وما يزال هذا الينبوع الدافق

---

(١) فصلت: ٣٤-٣٥. (٢) المرجع السابق. (٣) فى ظلال القرآن : ١ : ٦٩ بتصرف.

فى متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق، وريّاً فى الهجير، ومددا حين ينقطع المدد، ورصيدا حين ينفذ الرصيد..

واليقين بلقاء الله ـ واستعمال ظن ومشتقاتها فى معنى اليقين كثير فى القرآن وفى لغة العرب عامة ـ واليقين بالرجعة إليه وحده فى كل الأمور.. هو مناط الصبر والاحتمال، وهو مناط التقوى والحساسية.. كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم: قيم الدنيا وقيم الآخرة..

ومتى استقام الميزان فى هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمنا قليلا ، وعرضا هزيلا، وبدت الآخرة على حقيقتها، التى لا يتردد عاقل فى اختيارها وإيثارها..

وكذلك يجد المتدبر للقرآن فى التوجيه الذى قصد به بنو إسرائيل أول مرة، توجيها دائما مستمر الإيحاء للجميع..

ومن ثم عودة إلى نداء بنى إسرائيل، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالا قبل البدء بالتفصيل:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[1].

وتفضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة ـ كما سيأتى ـ وقضى عليهم بالتشريد، وحق عليهم الوعيد.

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده، وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدى الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان. وإلى عهد الله، شكرا على تفضيله لآبائهم، ورغبة فى العودة إلى مقام التكريم

---

(١) البقـرة : ٤٧ ـ ٤٨.

الذى يناله المؤمنون..

ومع الإطماع فى الفضل والنعمة، التحذير من اليوم الذى يأتى وصفه:

﴿ لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ .

فالتبعة فردية، والحساب شخصى، وكل نفس مسئولة عن نفسها، ولا تغنى نفس عن نفس شيئا..

وهذا هو المبدأ الإسلامى العظيم.. مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله.. وهو أقوم المبادئ التى تشعر الإنسان بكرامته، والتى تستجيش اليقظة الدائمة فى ضميره.. وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التى يكرمه بها الإسلام.

﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ .

فلا شفاعة تنفع ـ يومئذ ـ من لم يقدم إيمانا وعملا صالحا، ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته.

﴿ ولا هم ينصـــرون ﴾ .

فما من ناصر يعصمهم من الله، وينجيهم من عذابه.. وقد عبر ـ هنا ـ بالجمع باعتبار مجموع النفوس التى لا تجزى نفس منها عن نفس، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، وانصرف عن الخطاب فى أول الآية إلى صيغة الغيبة فى آخرها للتعميم.. فهذا مبدأ كلى ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين..

وتمضى الآيات بعد ذلك تعدد آلاء الله عليهم، وتبين كيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق.. مع أنهم هكذا بلا وطن.. غرباء دخلاء فى منزل الوحى.. حقا، إنها نفوس ودروس.

أهـــم المـــراجـــع

١ ـ الأرض المقدســـة، للأستاذ أنور الرفاعى.

٢ ـ إسرائيل العدو المشترك، للواء محمد صفوت.

٣ ـ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، للدكتور على عبد الواحد وافى، ط نهضة مصـــر .

٤ ـ بلادنا فلسطين، للأستاذ مصطفى مراد الدباغ ، دار الطليعة، بيروت.

٥ ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوى ، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدى، ط حكومة الكويت.

٧ ـ تاريخ الإسرائيليين، لشاهين مكاريوس، ط دار المقتطف ١٩٠٤م .

٨ ـ تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، للأستاذ محمد عزة دروزة، ط أولى: نهضة مصر ١٩٥٨م ، وط ثانية اللجنة القومية للتأليف والنشر ١٩٦١م ، وط ثالثة المكتبة العصرية فى صيدا.

٩ ـ تاريخ الجنس العربى، للأستاذ محمد عزة دروزة، ط العصرية ١٩٥٨م، ١٩٦٤م.

١٠ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد على، ط المجمع العلمى العراقى.

١١ ـ تاريخ اللغات السامية، للدكنور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

١٢ ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب، للدكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

١٣ ـ تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه.

١٤ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى، مصطفى البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨ م .

١٥ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمى، عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

١٦ ـ تفسير القرطبى(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٧م.

١٧ ـ تفسير الكشاف، للزمخشرى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

١٨ ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت.

١٩ ـ تهذيب سيرة ابن هشام، للأستاذ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

٢٠ ـ حياة محمد، للدكتور محمد حسين هيكل، دار إحياء التراث العربى ، ط ١٣ النهضة المصرية ١٩٦٨م.

٢١ ـ دراسة فى السيرة النبوية، للدكتور عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة دار النفائس ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٢٢ ـ الروض الأنف، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣ ـ سنن أبى داود، ط مصر، التجارية، الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٤ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى، ط بولاق ١٢٩٢هـ وط الهند وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٥ ـ السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط حجازى بالقاهرة.

٢٦ ـ صحيح البخارى، مع فتح الباري، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٧ ـ عصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة، للأستاذ محمد عزة دروزة، ط أولى دار اليقظة العربية، دمشق ١٩٤٦م وط ثانية ١٩٦٠م.

٢٨ ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

٢٩ ـ على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى: دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، للأستاذ إبراهيم بن على الوزير، دار الشروق ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٣٠ ـ فلسطين والضمير العالمى، للأستاذ محمد على علوبة.

٣١ ـ فى التاريخ فكرة ومنهاج، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق.

٣٢ ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣٣ ـ فى موكب الشمس، للدكتور أحمد بدوى.

٣٤ ـ القرآن واليهود، أخلاقهم ومواقفهم وأحوالهم فى زمن النبى ﷺ، ط دمشق ١٩٤٩م.

٣٥ ـ قصة الحضارة، لديورانت، ترجمة الأستاذ محمد بدران.

٣٦ ـ الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) ط بيروت.

٣٧ ـ مجلة العربى الكويتية: معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى: العدد: ٩١ : ١٥١ سنة ١٩٦٦

٣٨ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى، ط أولى، حيدر آباد.

٣٩ ـ مسند أحمد وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى ط الميمنية بمصر.

٤٠ ـ المسند ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م.

٤١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

٤٢ ـ المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: مجموعة من المؤلفين، دار إحياء التراث العربى.

٤٣ ـ مقارنة الأديان: اليهودية، للدكتور أحمد شلبى النهضة المصرية ط ثانية ١٩٦٧م.

٤٤ ـ اليهودية والصهيونية، للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ، دار الأندلس، ط أولى ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م.

وهناك كتب ومطبوعات رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة